دور النخب الخائنة

في إطالة أمد الصراع العماني – البرتغالي

في ساحل شرق أفريقيا

دراسة حالات حكام مالیندی وفازا وزنجبار

١٦٥٢- ١٦٩٨

د. شيرين مبارك فضل اللّه

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الدراسات الأفريقية العليا

جامعة القاهرة

حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود (العدد الثالث والثلاثون)

دور النخب الخائنة فى إطالة أمد الصراع العماني – البرتغالي فى ساحل شرق أفريقيا دراسة حالات حكام ماليندى وفازا وزنجبار ١٦٥٢- ١٦٩٨.

شيرين مبارك فضل اللّه

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: Shireen.mubarak@cu.edu.eg

ملخص

بحلول عام ١٦٢٠م ، حطَّم البرتغاليون – تقريبًا – التجارة البحرية العربية فى المحيط الهندي، وقطعوا التواصل العربى مع ساحل شرق أفريقيا، وأصبحت المنطقة بِشقّيها العربى والأفريقى غارقة في أزمة اقتصادية خطيرة. وقد استجاب الشعب العمانى لهذا التحدي من خلال القتال بقوة، والنجاح أخيرًا عام ١٦٥٠م فى طرد البرتغاليين من مسقط التى ظلت قلعتهم فى شبه الجزيرة العربية طوال مائة وخمسين عامًا، وتحرير الساحل العماني كله، واستعادة دورهم التقليدي كتجار بحريين في المحيط الهندي،. وبعد ذلك الانتصار الكبير شعر مسلمو شرق أفريقيا بأن وقت تحررهم قد حان، خاصة أهالي مُمباسا وزنجبار وبمبا، الذين أرسلوا رسائل ووفود سرية تطلب العون من أئمة عمان للتخلص من البرتغاليين. وتوالت حملات الإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩– ١٦٨٠م) والإمام سيف بن سلطان الأول (١٦٩٢– ١٧١١م) على ساحل شرق أفريقيا لتحريره طوال سنوات حتى سقوط قلعة يسوع عام ١٦٩٨م.

جاء تحرير العمانيين لساحل شرق أفريقيا استجابة لرابطة الدين، والجذور التاريخية الأصيلة للوجود العربى فى هذه المنطقة، كما جاء أيضًا فى إطار استراتيجية تحرير التجارة وتأمينها، حيث استخدم البرتغاليون أقصى درجات العنف لتفكيك المجتمعات الأفرو– عربية والأفريقية، والقضاء على الكيانات التجارية والاقتصادية، كما شكلوا حاجزًا بين ساحل شرق أفريقيا والأسواق الخارجية شرقًا عبر المحيط الهندي، وجَنوا – تبعًا لذلك– أرباحاً طائلة، فى حين عانى أهالي الساحل من شظف العيش نتيجة الحصار السياسى والاقتصادى والثقافى الذى مارسه البرتغاليون ضدهم. فقد اتسم

الوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا بالاستخدام المفرط للقوة، والافتقار إلى الدبلوماسية، واللامبالاة تجاه الشؤون المحلية.

لم يستفد من الوجود البرتغالى إلا نخبة تعاونت مع البرتغاليين، وساهمت بمؤازرتها لهم فى عرقلة التقدم العماني لتحرير ساحل شرق أفريقيا، وصمود البرتغاليين لوقتٍ أطول، مثل: الأمير داوود حاكم فازا، والملكة فاطمة بنت حسن ملكة زنجبار، وحاكم ماليندى، يعود ذلك لارتباط مصالحهم التجارية مع البرتغاليين، إضافة لنجاح البرتغاليين فى صناعة وتصعيد نخب محلية موالية لهم. كانت مواقف تلك النخبة الخائنة خارجة عن إجماع باقى حكام وأهالى ساحل شرق أفريقيا المنحاز والداعم للقوات العمانية.

بناءً عليه، ترتكز الدراسة على ثلاثة محددات أساسية، المحدد الأول: الآثار المترتبة على إخضاع التجارة فى شرق أفريقيا للسيطرة الكاملة للبرتغال، إضافة لتتبع الرسائل والوفود السرية التى أرسلها أهالى ساحل شرق أفريقيا لطلب المساعدة من أئمة عمان. المحدد الثانى يتناول، دور النخبة الموالية للبرتغاليين فى إطالة أمد الصراع العمانى – البرتغالى فى ساحل شرق أفريقيا. أما المحدد الثالث فيناقش، دور أهالي ساحل شرق أفريقيا فى التعاون مع القوات العمانية من أجل طرد البرتغاليين، وتحرير الأرض، والمياه، والتجارة من محتكريها، الذين أضروا بمصالح مختلف الأطراف الفاعلة – القدامى والجدد– المستفيدة من تجارة المحيط الهندى.

والواقع، أن هذه الدراسة لا تسلط الضوء على دور النخب فقط، بل سعت أيضًا، لرصد دور أهالى الساحل الرافضين للاستعمار البرتغالى، وإماطة اللثام عن مساهمتهم فى تحرير ساحل شرق أفريقيا بمساعدة العمانيين. كما حاولت الدراسة توثيق تفاعل العلاقات بين العمانيين وأهالى الساحل من ناحية، والنخب الحاكمة وعلاقتهم بالبرتغاليين من ناحية أخرى، مع رصد مختلف المسالك والقنوات التى أسهمت فى بلورة هذه العلاقات، اعتمادًا على ما أمكن الحصول عليه من وثائق برتغالية ومخطوطات ووثائق عربية وبريطانية تؤرخ لتلك الفترة التى شهدت ذروة تفاعل العلاقات العمانية – البرتغالية فى شرق أفريقيا.

الكلمات المفتاحية: العمانيون، البرتغاليون، ساحل شرق أفريقيا، ماليندى، زنجبار، مُمباسا.

حولية كلية اللغة العربية بإيتاي البارود (العدد الثالث والثلاثون)

The Role of the treacherous Elite in Prolonging the Omani-Portuguese Conflict in East Africa 1652- 1698

Sherine Mubarak Fadlallah
Lecturer of Modern and Contemporary History, Graduate School of African Studies, Cairo University, Egypt.
E-mail: Shireen.mubarak@cu.edu.eg

Abstract: By 1620 the Portuguese had virtually wrecked Arabian maritime trade on the Indian Ocean and with the shifting of trade routes away from the Peninsula, in addition to other factors, the area became engulfed in a grave economic crisis. The Omani people responded to this challenge by vigorously (and finally successfully) combating Portuguese encroachment and restoring their traditional role as maritime traders in the Indian Ocean. This encouraged the people of the East Africa coast to seek assistance from the Omanis to get rid of the Portuguese and the monopolistic policy.

The liberation of the East African coasts by the Omanis cames as a response to the bond of religion and the original historical roots of the Arab presence in this region, as well as to liberalize and secure trade . Only the elite who collaborated with the occupiers benefited from the Portuguese and helped them to obstruct the Omani progress to liberate the East African coast.

The paper is based on three determinants. The first is the implications of subjecting trade in East Africa to the full control of Portugal and following the messages and messages sent by East African coasters to seek help from the imams of Amman. The second determinant addresses the role of the pro-Portuguese elite in prolonging the Omani-Portuguese conflict in East Africa. The third determinant discusses the role of East African coast people during the research period in cooperating with the Omani forces to expel the Portuguese, liberating the land, water

and trade from their monopolists, who harmed the interests of the various actors - old and new - benefiting from the Indian ocean trade.

This study is an effort to look at the history of part of Africa and to show that in a different historical framework the area and its people did play an important role in the continuous drama of world, Especially in this crucial century of the history of the interactions of Omani-Portuguese relations in East Africa.

مُقَدِّمَة

بحلول عام ١٦٢٠م ، حطَّم البرتغاليون – تقريبًا – التجارة البحرية العربية فى المحيط الهندي، وقطعوا التواصل العربى الإسلامى مع ساحل شرق أفريقيا، وأصبحت المنطقة بِشقّيها العربى والأفريقى غارقة في أزمة اقتصادية خطيرة. وقد استجاب العمانيون لهذا التحدي من خلال استمرار المقاومة والقتال بقوة، ومن ثم النجاح عام ١٦٥٠م فى طرد البرتغاليين من مسقط، التى ظلت قلعتهم فى شبه الجزيرة العربية طوال مائة وخمسين عامًا، وتحرير الساحل العمانى كله، واستعادة دورهم التقليدي كتجار بحريين في المحيط الهندي. وبعد ذلك الانتصار الكبير شعر مسلمو شرق أفريقيا بأن وقت تحررهم قد حان، فأرسلوا الرسائل والوفود لطلب العون من أئمة عمان لمساعدتهم فى التخلص من البرتغاليين. وقد توالت الحملات العمانية على ساحل شرق أفريقيا لتحريره طوال عقود، حتى سقوط قلعة يسوع فى "مومباسا" عام ١٦٩٨. كان من أبرز الأسباب التى حالت دون تحرر الساحل الشرقى لأفريقيا فى مدى زمنى قصير المعونة الداخلية التى تلقاها البرتغاليين من النخب المتحالفة معهم من حكام الساحل، والتى تمثلت فى الدعم المادى، والعسكرى، والمعلوماتى.

تعتبر نظرية النخبة من أهم موضوعات علم الإجتماع السياسي، التي يذهب أنصارها إلى أنها حقيقة موضوعية، لأن الشواهد التاريخية وواقع المجتمعات، تتميز بوجود أقلية حاكمة، محتكرة لأهم المناصب السياسية، وبيدها مقاليد الأمور، وأغلبية محكومة ليس لها صلة بصنع القرار السياسي بشكل عام، يتفق مع هذا الطرح أحد أبرز تعريفات النخبة، الذى يُعرف النخبة بأنها فئات تمارس السلطة مباشرة، وتكون في وضع تؤثر فيه بشدة في عملية صنع القرار. والواقع، أن تعريفات النخبة تتعدد، لدرجة أنه لا يوجد تعريف موحد لمصطلح النخبة يسود الجماعة العلمية، على سبيل المثال، يرى روبرت

داهل Robert Dhal، أن النخبة مجموعة من الأفراد يشكلون أقلية تسود تفضيلاتهم عند حدوث أزمات، بينما يتحدث رايت ميلز R. Mlis ، عن النخبة باعتبارها "نخبة القوة"، ويقصد بها الدوائر السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، التى تتداخل وتشترك فى اتخاذ القرارات الرئيسية فى المجتمع. وعمومًا، يظل موضوع النخب السياسية واحدًا من أهم الموضوعات التى تثير اهتمام الباحثين المختصين بالظواهر الاجتماعية والسياسية.

بناءً عليه، يأتى اهتمام الدراسة بدور النخب الحاكمة المستفيدة من الوجود البرتغالى فى ساحل شرق أفريقيا فى إطار ما لهذا الدور من تفاعلات وتأثيرات تسببت فى إطالة أمد الصراع العمانى – البرتغالى فى هذه المنطقة، إضافة إلى الوقوف على طبيعة ومدى دعم هذه النخب للبرتغاليين، وهل كان دعمًا أصيلًا ينطلق من ثوابت سياسية واقتصادية معينة، أم دعمًا فرضته حقيقة أن الاستعمار البرتغالى أحكم سيطرته العسكرية على مدن الساحل الشرقى لأفريقيا، فتكونت عبر السنين شبكات مصالح مع الاستعمار، من الصعب فصم عراها. وفى هذا السياق يتناول البحث أثر التنشئة السياسية والاجتماعية التى أفرزت هذه النخب، والتى أنتجت أنظمة تعتمد أساسًا على الصراع لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية على رؤيتهم للاستعمار البرتغالى، وعلي موقفهم من العمانيين.

وفى مقابل دور هذه النخب يسلط البحث أيضًا الضوء على موقف الأهالى الرافض – فى معظمه – للسيطرة البرتغالية، كونهم الطرف الأكثر تضررًا من أفعال البرتغاليين، ودورهم فى الاتصال بالعمانيين، ومساندتهم فى ميادين القتال المختلفة التى شهدتها مدن الساحل، من أجل طرد البرتغاليين، وتحرير الأرض، والمياه، والتجارة من محتكريها، الذين أضروا بمصالح مختلف الأطراف الفاعلة – القدامى والجدد– المستفيدة من تجارة المحيط الهندى، وكيف ساهم الأهالى بموقفهم هذا فى فقدان النخب الحاكمة لشرعيتها، عقابًا لهم على تواطؤهم سرًا وعلانية مع البرتغاليين، وتماهيهم فى شبكة مصالح الاستعمار.

أولا- تفاعل النخب الحاكمة مع الوجود البرتغالي فى ساحل شرق أفريقيا

يرجع اتصال العرب بأفريقيا إلى عصر ما قبل الإسلام، ومن المرجَّح أن يكون عرب جنوب الجزيرة هم أقدم الشعوب العربية اتصالًا بالسواحل الشرقية لأفريقيا[١]، بحكم الجوار الجغرافي والعلاقات التجارية [٢]. كان الإسلام استهلالًا جديدًا لتاريخ العلائق بين العرب وجيرانهم فى أفريقيا الشرقية، حيث أدى إلى نقلة نوعية فى تاريخ التواصل والتفاعل بين الجانبين؛ ومهد لبسط الثقافة والوجود المستقر للعرب لدى أفارقة الجزر والسواحل، الذين انتشر الإسلام بينهم بشكل سريع[٣]، ولم يكد القرن الثالث عشر الميلادى ينتصف حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقى لأفريقيا، من سواكن

(1)Bhacker, Reda. Trade and Empire in Muscat and Zanzibar: The Roots of British Domination, London: Routledge, 1992. p.55.

(٢) يذكر المسعودى أن مساكن الزنج امتدت من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سُفالة، وإليها تقصد سفن العمانيين والسيرافيين، ومن أرضهم تجهز أنياب الفيلة، فيجهز الأكثر منها إلى عمان، ومن عمان تحمل لأرض الصين والهند. المسعودى، أبى الحسن على بن الحسين بن على: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محى الدين عبدالحميد، الجزء الثانى، بيروت، دار الفكر العربى، ١٩٧٣، ص ص ٧،٨. كان مما ساعد الجانبين على قيام هذه الصلات، الرياح الموسمية، التي مكَّنت السفن الشراعية من القيام برحلتين في العام؛ ففي الخريف تدفعها الرياح فى اتجاه جنوبى غربى فتخرج من خليج عُمَان وسواحل الجزيرة نحو الساحل الأفريقي، وفي الربيع تدفعها الرياح في اتجاه شمالى شرقي، حيث تمكِّنها من العودة إلى قواعدها، وفي خلال دورة الرياح يتمُّ التعامل التِّجاري. الغنيمى، عبدالفتاح مقلد: الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٨، ص ٢٢.

(٣) كان لحركة الهجرات العربية، لاسيما العمانية، التى اندفعت منذ القرن العاشر الميلادى نحو شرق أفريقيا، دورًا كبيرًا فى نشر الإسلام. ولم يكد القرن الثالث عشر الميلادى ينتصف حتى كانت المدن العربية الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقى، من سواكن شمالًا، مرورًا بمقديشيو، وبات، وكلوة، ومُمباسا، وماليندى، حتى سُفالة فى الجنوب، اشتغلت هذه المدن بالتجارة، وتحولت بمرور الوقت إلى سلطنات إسلامية كبرى. الحيمى، الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة، القاهرة، د.ت، ص ٢٢. أسست هذه السلطنات أسرات عربية، أما الرعية فكانوا مسلمين من أهل البلاد، وخليط من العرب والفرس الوافدين. وأصبحت هذه المدن فيما بعد الأساس الذى قام عليه الحكم العمانى فى شرق أفريقيا. أرنولد، توماس. و: الدعوة إلى الإسلام، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١، ص ٣٧٩.

Prins, A.H., The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast Arab – Shiraz and Swahili, London, 1961, P.34.

شمالًا، حتى سُفالة جنوبًا[١]، اشتغلت هذه المدن بالتجارة، كما كانت أيضاً مراكز لنشر الدعوة الإسلامية. زاد غنى هذه المدن، وزاد رسوخ الإسلام بين أهلها، وتحولت إلى سلطنات إسلامية كبرى [٢].

أدى الاختلاط والتصاهر بين العرب والأفارقة إلى نشأة أجيال مختلطة عرقيًا، هذا الاختلاط كان نواة الثقافة السواحيلية، حيث شكلت السلطنات الإسلامية علي الساحل السواحيلي [٣] إطارًا لحضارة تجارية حضرية، ذات ثقافة ولغة خاصة[٤]، هى نتاج العلاقات التجارية التى شملت المحيط الهندى، وامتدت من أفريقيا والجزيرة العربية والهند

(١) سُفالة: تقع فى الجزء الجنوبى من ساحل شرق أفريقيا، موزمبيق، وهى أخر مدينة بأرض الزنج، وكان الوطنيون يستقبلون العرب قائلين:" مرحبًا بأبناء اليمن" وقد شهدت أوج ازدهارها فى القرنين السابع والثامن الهجري، الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، أطلق عليها الجغرافيون العرب سفالة الذهب، سفالة التبر، سفالة الزنج. الدورى، تقى الدين؛ خولة شاكر الدجيلى: تاريخ المسلمين فى إفريقية، الطبعة الأولى، أبوظبى، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٤، ص ١٠٥.

(٢) محمود، حسن أحمد: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦، ص ٣٣٧.

(٣) تمتد المنطقة الساحلية لشرق أفريقيا من مقديشيو شمالًا حتى سُفالة جنوبًا، ويطلق على هذا القسم من الخط الساحلي، الذى يزيد طوله على ٣٠٠٠ كيلو متر، اسم الساحل السواحيلي. الدورى، تقى الدين؛ خولة شاكر الدجيلى: مرجع سبق ذكره، ص٣٠.

(٤) تتوزع أفريقيا ثقافيًا بين حضارات وثقافات أصيلة ومنقولة، فثمة ثقافة أفريقية، وأخرى عربية، وثالثة مركبة منهما معًا هى السواحيلية، ورابعة استعمارية فوقية، فرضت نفسها بالقوة. وقد شهدت منطقة الساحل الشرقى لأفريقيا بين القرنين الثانى والخامس عشر ازدهار الثقافة العربية – الأفريقية ذات الصبغة الإسلامية، حيث أدى التصاهر بين العرب والأفارقة إلى نشأة أجيال مختلطة عرقيًا، هذا الاختلاط كان نواة الثقافة السواحيلية، لذلك؛ كان هيكل هذه الثقافة أفريقيًا، وجوهرها عربيًا. انظر، حريز، سيد حامد: الثقافة السواحيلية: أصولها، ومقوماتها، وتطورها، فى يوسف فضل حسن (محرر)، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥ ص ٣٣ . فليفل، السيد أحمد على (محرر): "بعض محددات العمل الثقافي العربي الأفريقي من التبعية إلى الاستقلال والعولمة"، أعمال مؤتمر العلاقات الثقافية العربية الأفريقية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٢.

إلى أقصى شرق إندونيسيا والصين [١]. واجهت مدن الساحل الشرقى لأفريقيا تهديدًا وجوديًا بمجيء البرتغاليين الذى شكل كارثة على المنطقة، فقد أنهوا فترة طويلة ومزدهرة من التفوق التجارى لجميع الأطراف المستفيدة من تجارة المحيط الهندى، ولم يألوا جهدًا فى فصم الروابط بين آسيا العربية والخط الساحلي الأفرو – إسلامى[٢]. حرص البرتغاليون على تأسيس نفوذ لهم على ساحل شرق أفريقيا، بعد أن أدركوا أهمية اتخاذ موانئ الساحل قاعدة ملاحية ومحطات تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند والآتية منه بالعتاد والمؤن، تبع ذلك استغلالهم الساحل والداخل الأفريقى لأغراضهم الاقتصادية[٣].

يمكن حصر الوجود البرتغالى فى المنطقة بثلاث مراحل: امتدت المرحلة الأولى من ١٥٠٠ إلى ١٥١٥، عمد البرتغاليون في هذه المرحلة إلى إرساء قواعد كيان سياسى، كان عاصمته جوا، بالهند، كما استطاعوا في سلسلة من الهجمات السيطرة على مدن الساحل الشرقي لأفريقيا، حيث استولى فاسكو دى جاما في رحلته الثانية إلى الهند عام ١٥٠٢، على كلوة Kilwa بعد هزيمة حاكمها[٤]، وكانت مدينة مزدهرة تتاجر بالذهب من سُفالة، وتنقله للجزيرة العربية. وفى عام

(1)Rolingher. Louise, Constructing Islam and Swahili Identity, Historiography and Theory, in Ghazal. Amal N, (Ed.) Frontier Geography and Boundless History, Islam and Arabs in east Africa A Fusion of Identities, Networks and Encounters, The MIT Electronic Journal of Middle East Studies, Voll. 5, 2005, p. 9.

(2)Northrup, David, Vasco da Gama and Africa: An Era of Mutual Discovery, 1497-1800, Journal of World History, Vol. 9, No. 2 (Fall, 1998), p.197.

(٣) قاسم، جمال زكريا: الاستعمار البرتغالى وأثره على العلاقات العربية الأفريقية، فى جمال زكريا قاسم(محرر): العلاقات العربية الأفريقية دراسة تاريخية فى الآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٤.

(٤) كلوة: تقع على بعد ٢٢٠ ميلًا جنوبي دار السلام، كان الشيرازيون القادمون من بلاد فارس أواسط القرن الثالث الهجري أول من وصلها من المسلمين، بقيادة حسن بن على الشيرازى، وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي كانت كلوة البلدة التجارية الأكثر أهمية على ساحل شرق أفريقيا، وقد احتفظت بسيطرتها على تجارة الذهب حتى القرن السادس عشر. عبدالعزيز، راشد بن عبد العزيز: مملكة كلوة الإسلامية فى شرق أفريقيا (٣٦٥/٩٠٣هـ – ٩٧٥/ ١٤٩٨م، مجلة الدرعية، العدد الثانى والأربعون، جمادى الآخر ١٤٢٩هـ/سبتمبر ٢٠٠٨، ص ٣٣٠.

١٥٠٣، استولى رافاسكو Ravasco على زنجبار[١]. وفي عام ١٥٠٥، وصل للمنطقة د'الميدا D'Almeida نائب الملك فى الهند، ومعه أسطول مكون من أكثر من عشرين سفينة لمساعدته في السيطرة على ثلاثة مراكز على الساحل، هى: سُفالة Sofala، وكلوة، ومُمباسا Mombasa[٢]. في الهجمات التي تلت، سقطت سُفالة بسهولة وبالمثل، كلوة، التي كان يقطنها حوالى ٤٠٠٠ شخص في عام ١٥٠٥، ولكن الأمر كان مختلفًا في مُمباسا، التي بلغ عدد سكانها فى ١٥٠٥ حوالي ١٠.٠٠٠ نسمة، حيث واجه البرتغاليون مقاومة شرسة[٣]. أما المرحلة الثانية فامتدت من ١٥١٥ إلى ١٥٥٠، بلغ فيها التوسع البرتغالى ذروته، وسيطر فيها البرتغاليون سيطرة شبه مطلقة على البحار، وضيقوا الخناق على التجارة

(١) زنجبار: تتكون من شقين، زنج، وبار. والكلمة الأخيرة تعنى الساحل، فهى تحريف من كلمة "بر" العربية، وهى تعنى بر الزنج، أو ساحل الزنج. وتعد أكبر جزيرة مرجانية على ساحل شرق أفريقيا. وأرض زنجبار حجرية، ولكن توجد بها بقاع خصبة، وهى مليئة بالثمار والخيرات، وتنتشر بها أشجار القرنفل والنارجيل والبرتقال، وتسمى بستان لأفريقيا الشرقية لخضرتها وجمال منظرها. لمزيد من المعلومات انظر، ابن ماجد: شهاب الحق أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر: الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد، تحقيق: إبراهيم خورى،دمشق، ١٩٧١، ص ٢٩٩.

(٢) ممباسا: عبارة عن جزيرة مرجانية، تقع على ارتفاع ستة عشر مترًا فوق سطح البحر، بالقرب ساحل أفريقيا الشرقية، يفصلها عن الساحل خور من الماء العميق، يحيط بها الساحل من الغرب والشمال والشمال الشرقى، مما جعلها صالحة لقيام الموانئ.

Stigand, G.H., the Land of Zing, London, 1913, p.104.

(3)Documentos Sobre Os Portuguse em Mocambique ena Africa Centrl 1497- 1840. Documents on the portugese in Mozambique and Central Africa 1497- 1840, Vol.V, (1517- 1518), National Archives of Rhodesia, Centro de Estudos Historicos Ultramarinos, Lisboa, 1966, pp.377, 378.

Omulokoli, Watson A.O., Portuguese Presence and the Endeavours in East Africa 1498- 1698, II. Political Occupation and Presence, 1498- 1698, Early Picture and Background, Part II & III, Africa Journal of Evangelical Theology, 2006, p. 141.

العربية، مما جعل ترويج التوابل حكرًا على سفنهم، باستثناء كميات قليلة كانت تُهرب فى ظروف صعبة. أما المرحلة الثالثة، الممتدة من منتصف القرن السادس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، فقد ظهر فيها بوضوح معالم الضعف لدى البرتغاليين(١).

والملاحظ أن البرتغاليين ارتكزوا فى شرق أفريقيا على القسم الجنوبى من الممتلكات العربية الإسلامية، بينما اكتفوا فى الشمال بالاعتماد على محالفة بعض الحكام، وإقامة القلاع والحصون والحاميات العسكرية، وأجبروا الأهالى على دفع الجزية. بالغ البرتغاليون فى التنكيل بالمسلمين، وتخلوا عن قواعد التعامل التجارى القائمة منذ قرون، وفرضوا نوعًا جديدًا من التعامل يعتمد على الإكراه، واستعراض القوة، والاحتكار. كان الاستخدام المفرط للقوة مقصودًا منذ البداية، لتأكد البرتغاليين من استحالة إزاحة التجار المسلمين من تجارة المحيط الهندى بسهولة، لذلك؛ كان العنف سلوكًا ممنهجًا، بهدف إفزاع التجار العرب وإبعادهم عن تجارة الهند(٢).

ظهرت هذه الاستراتيجية فى سلوك البرتغاليين مع مسلمي الساحل، خاصة المدن التجارية التى أظهر أهلها مقاومة، كمُباسا، وكلوة، ولامو، وبات، فلم تنج مدينة من هذه المدن من التخريب والإرهاب البرتغالى، لاسيما مُباسا، التى تزعمت حركة المقاومة ضد البرتغاليين، نتيجة لذلك تعرضت لأحداث قاسية من الحرب والتدمير والحرق الذى أنزله البرتغاليين بها عقابًا لأهلها. وباستخدام هذه السياسة استطاع البرتغاليون فى سنوات قليلة أن يقضوا على مؤسسات العرب التجارية المزدهرة فى شرق أفريقيا (٣). كانت هذه السياسة متسقة مع

(١) الخليج العربى والبحر الأحمر من خلال وثائق برتغالية ١٥٠٨- ١٥٦٨، ترجمة: أحمد بوشرب، الرياض، سلسلة إصدارات كرسى الأمير سلمان بن عبدالعزيز للدراسات التاريخية والحضارية للجزيرة العربية، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٢٤.

(2)Baiao, Antonio, Historia da expansao Portuguesa no Moundo, Lisboa, Editorial Africa, 1939, p.298.

(٣) محمود، حسن أحمد: مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٤.

الرؤية البرتغالية للمسلمين، حيث نظروا إلى كل من يخالفهم العقيدة على أنه عدو تجب محاربته [١]. وكانت بغيتهم العظمى – بجانب السيطرة على التجارة – تغيير دين المسلمين وإدخالهم فى المسيحية على المذهب الكاثوليكى [٢]. كل هذا فرض على أهالى ساحل شرق أفريقيا استمرار المقاومة للدفاع عن وجودهم، وعقيدتهم، ومصالحهم التجارية. ولكنهم لم يستطيعوا تكوين جبهة موحدة ضد البرتغاليين[٣]، فقد كانت هذه المدن مجزأة سياسيًا، وكل مدينة تشكل وحدة سياسية قائمة بذاتها، لها إدارتها، وتجارتها، ومصالحها الخاصة، مما أدي إلى سهولة سقوطهم سريعًا فى قبضة البرتغاليين [٤]. ونظرًا لافتقار تلك المدن للقوة العسكرية فقد كان من الصعب عليهم التخلص من البرتغاليين إلا بالاستعانة بقوى أخرى[٥].

يرجع العجز عن تحقيق الوحدة السياسية بين مدن وإمارات الساحل إلى أن مؤسسيها كانوا من بطون عربية مختلفة، لم تتحد فى شبه الجزيرة العربية فكيف تندمج فى نظام سياسى واحد فى شرق أفريقيا، فضلًا عن تجزئتها وفقًا للتقسيم العرقي، والمذهبي، لذا كان من الصعب أن تأتلف وتتوحد، بناءً عليه، استقلت كل مدينة بنشاطها التجاري، ولكن العدوات كانت لا تفتأ تشتعل بينهم، بسبب المنافسة على التجارة المنقولة بحرًا، فضلًا عن دوافع السيادة والرغبة فى السيطرة على الساحل مثل النزاع بين مالندى ومُمباسا،

(1)Mahmood, Kooria, Killed the Pilgrims and Persecuted Them, Umar Ryad Editor", The Hajj and Europe in the Age of Empire, Published by: Brill. 2017, p. 15.

(٢) اقترنت الأهداف الدينية بما قام به البرتغاليون من محاولات القضاء على مظاهر الحضارة الإسلامية فى ساحل شرق أفريقيا. كما ظهر ذلك فى تعدد مراكز التبشير التى أقامها الآباء الكاثوليك فى مدن الساحل، خاصة ممباسا التى اتخذها المبشر البرتغالى سان مونييك مركزًا تبشيريًا له. المليبارى، أحمد زين الدين بن عبدالعزيز المعبرى: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، تحقيق: محمد سعيد الطريحى، بيروت، مؤسسة الوفاء للنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٦٢. قاسم، جمال زكريا: مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.

(٣) محمود، حسن أحمد: مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٨.

(4)Sousa, Manuel Faria Y., The Portuguese Asia, III, 3, XIII, London, 1975, p.266.

(٥) قاسم، جمال زكريا: مرجع سبق ذكره، ص ٧١.

الذى استمر حتى قدوم البرتغاليين، وكان أن سارت ماليندى فى ركاب البرتغاليين رغبة فى الانتقام من مُمباسا. نتيجة لذلك نجح البرتغاليون خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر فى السيطرة على الساحل الشرقي لأفريقيا، وفشلت جهود العرب والأفارقة فى درء خطرهم(١).

استفاد البرتغاليون من الصراعات المستمرة بين النخب الحاكمة لمدن الساحل، وعملوا على إذكاء جذوة الخلافات بينهم، كي لا تشكل وحدتهم وائتلافهم عقبة أمام مساعيهم الرامية إلى تطويق المنطقة(٢)، وبالتالى لم يكن هناك إمكانية حقيقية للوحدة والتعاون – ولو مؤقتًا – فى وجه العدو المشترك. وبحلول العقد الأخير من القرن السادس عشر، كانت شعوب الساحل قد شهدت عقودًا طويلة من الاستغلال والنهب الاقتصادى، ومن تدخل البرتغاليين في طريقة حياتهم الموروثة منذ مئات السنين، وكذلك عقودًا من الثورات ضد البرتغاليين، والنجاح النسبى فى الفكاك – أحيانًا– من قبضتهم، ومن ثم العودة إليها مرة أخرى نتيجة فارق القوة، ونتيجة الخيانات الداخلية ممن دانوا بالولاء للبرتغاليين من حكام الساحل (٣).

كان من الذين عقدوا صداقة وطيدة مع البرتغاليين منذ البداية حاكم ماليندي، فعندما وصل أسطول فاسكو دا جاما إلى أقصى الحواف الجنوبية للساحل السواحيلي في يناير ١٤٩٨، استقبله شيخ ماليندي بحرارة(٤)، إما بسبب تصميم بعيد النظر لاكتساب

(1)De Carvalho, Luis Francisco, Historia **e** desenvolvimento: Dinamica afro- islamica na Africa Oriental Oitocentista, Documentos de Trabalho, N.36, CEsA, Lisboa, 1995, p.13.

(2)Ibid, p.14.

(3)Alpers, Edward & Christopher Ehret, Eastern Africa, in Richard Gray (ed.)The Cambridge History of Africa, Cambridge University Press, 1971, p. 528.

(٤) كان البرتغاليون يتعمدون إنزال أشد أنواع العقاب بالمدن التى تقاوم، من قتل وحرق وسلب ونهب، وقد تلقي حاكم ماليندى رسالة من حاكم مُمباسا يخبره فيها بمصير المدينة بعد مقاومتها للبرتغاليين، قد تكون هذه الرسالة من أسباب إدراك حاكم ماليندى لفارق القوة بينه وبين البرتغاليين، ومما جاء فيها:" بارك الله فيكم يا سيد على، أكتب إليكم لإبلاغكم أن سيدًا عظيمًا مر بهذ البلدة، وأحرقها، وتركها خرابًا، وهو لم يكتفِ بقتل الرجال وحرقهم، بل وأسقط الطيور من السماء، كما لم استطع تقدير ما نهبوه من ثروات المدينة، وأنا أبعث لكم هذه=

حليف قوي ضد مُمباسا، وإما بدافع الحفاظ على مدينته مع تغيير القوى وموازين السياسة لصالح البرتغاليين. يذكر البرتغاليون فى وثائقهم أن أهالى ماليندى تعاملوا معهم بود، مما ساهم فى استمرار تجارة ماليندى مع سُفالة، خاصة وأن تجارة ماليندى استندت إلى حد كبيرعلى تصدير سلع مثل العاج، وبيع سلع مثل الذهب الآتى من سُفالة [١]. لذلك؛ ظلت ماليندى – على عكس معظم مدن الساحل– تنعم بالثراء والاستقرار الاقتصادى، نتيجة تحالفها مع البرتغاليين، وبقى كلا الجانبين وفيًا للتحالف الذي أقاماه، فى ظل الاستفادة المتبادلة، لذا اكتفى البرتغاليون بتعيين قائد بحرى فى ماليندي، مع عدد قليل من السفن الصغيرة تحت تصرفه، للقيام بدوريات على الساحل لمراقبته، في غياب أى أثر للاحتلال الفعلي[٢].

وعلى العكس من ماليندى، كانت مُمباسا تموج بالثورة والعداء ضد البرتغاليين، حيث رفض حاكمها الدخول فى طاعة ملك البرتغال[٣]، وظلت ترقب الفرص الملائمة للثورة على البرتغاليين، ففى عام ١٥٨٦ وصل القائد العثماني " ميرعلي بك" إلى مقديشيو وأخبر أهالى الساحل أن هناك أسطولًا عثمانيًا قادم لنجدتهم، لذلك؛ أعلنت كل من مقديشيو وفازا[٤] Faza وبات Pata ولامو Lamu تحويل تبعيتهم من الملك المسيحي فيليب الثانى، للسلطان المسلم مراد الثالث، كانت ممباسا أسبق مدن الساحل اعترافًا بالسيادة العثمانية، اما حاكم ماليندى فرفض الاعتراف بالسيادة العثمانية، وكتب إلى شيوخ المدن وأمرائها يطالبهم بمساندة البرتغاليين. وبعد رحيل

=الأخبار فى سبيل سلامتكم". فيليبس، وندل: تاريخ عمان، ترجمة: محمد أمين، مسقط، ١٩٨١، ص ٤٦.

(1)Documentos Sobre Os Portuguse em Mocambique, Op. Cit, p.378.

(2)Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.528.

(٣) شملت قائمة المعارك التى واجهتها مُمباسا ضد البرتغاليين، معركة عام ١٥٢٨، حينما كان نونو دى كونها Nuno da Cunha فى طريقه إلى الهند كنائب للملك، هاجم المدينة بمساعدة حُكام زنجبار وماليندى، واضطرت مُمباسا للاستسلام، وبعد حوالى خمسون عامًا ثار أهالى مُمباسا على البرتغاليين بمساعدة العثمانيين، أعوام ١٥٨٦ و ١٥٨٩، وبالرغم من هزيمة مُمباسا فى المرتين إلا أنها ظلت على حال الثورة، حتى قدوم العمانيين.

Omulokoli, Watson A.O., Op. Cit, p. 148.

(٤) كانت فازا وسيو تابعتين لحكام جزيرة بات. Idid

القائد العثماني قدم من جوا أسطولًا برتغاليًا عام ١٥٨٧، بقيادة ألفونسو بوفمبيرو Alfonso Pavompiro لتأديب المدن والموانئ التى سلمت للعثمانيين، بعد أن أرسل حاكم ماليندي يخبر نائب الملك فى جوا بما حدث(١). تكرر نفس الأمر عام ١٥٨٨ من حاكم ماليندى، بعد ظهور أسطول عثمانى مكون من خمس سفن يقودها على بك، الذى استنجد به أهالى الساحل وطالبوه بالوفاء بوعده فى تخليصهم من البرتغاليين، وقد استقبلت مدن الساحل الأسطول العثمانى بحماس بالغ، عدا ماليندي التى أطلقت النار على أسطول على بك عند مروره بها(٢)، وأرسل حاكمها يستنجد بالبرتغاليين مرة أخري، وانتهي الأمر بهزيمة العثمانيين وإعادة السيطرة البرتغالية على الساحل(٣).

---

(١) شملت كان العقاب الذى أوقعه البرتغاليون بمدن الساحل شديدًا، ولكن مقديشيو صمدت بفضل قوة أسوارها وبسالة رجالها، أما ممباسا فقد غادرها سكانها فرارًا، وقام البرتغاليون بحرقها، أما شيخي بات ولامو فقد تذرع أولهما أن التمرد ضد البرتغاليين فرض عليه من قبل العثمانيين، والثانى آثر الفرار نجاة بحياته، أما فازا فقد أعمل فيها البرتغاليون القتل، وحرقوا المدينة، وذبحوا شيخها، وأغرقوا جميع السفن الراسية فى مينائها. قاسم، جمال زكريا: مرجع سبق ذكره، ص ٧٣.

The Formation of the Portuguese Colonial Empire, Handbook Prepared under the Direction of the Historical Section of the Foreign office, London, published by H.M Stationery office, 1920, p.16.

(٢) كانت خطة على بك تقضي بالقضاء أولًا على ماليندى، حيث أدر أن تحرير الساحل لن يكون بغير القضاء على النخب الخائنة، التى تمد البرتغاليين بالمدد والمعلومات، ولكن البرتغاليين تحسبًا لهذا الأمر تركوا بها حامية للدفاع عنها بقيادة ماتيوس ماندى دى فيكونالوس Matus Mands de Ficonlous، الذى قاوم الهجوم العثمانى وصده، مما أضطر على بك للانسحاب إلى ممباسا، والتجهيز لإستئناف الهجوم على ماليندي. جيان: وثائق تاريخية وجغرافية من شرق أفريقيا، ترجمة: يوسف كمال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٢٧، ص ٢٠٨.

(٣) سارع حاكم ماليندى بطلب النجدة من البرتغاليين، فأرسلوا أسطولًا مكونًا من عشرين سفينة، وتسعمائة جندي إلى ممباسا، فقد كان الخطر لا يتمثل بفقدان ممباسا وفقط، بل تعداه إلى ماليندى، أهم حليف للبرتغاليين على الساحل. سقوط ماليندى كان يعنى أن فرص ضياع الساحل كله من أيدى البرتغاليين كانت كبيرة. على الجانب الأخر استعد على بك بتعزيز قواته، ولكنه وجد نفسه ما بين مطرقة البرتغاليين وسندان قبائل الزيمبا، التى تنتمى إلى مجموعة الزولو، مما سهل على البرتغاليين تفريق =

بنهاية القرن السادس عشر كانت مُمباسا قد أُضعفت بما فيه الكفاية لصالح عدوتها، ماليندي، خاصة مع استيلاء البرتغاليون على المدينة، وتخريبها، وسرقة ما بها من ذهب، وتفريغها من كل السلع الثمينة(١). ولمزيد من إذلال أهلها تم مكافأة حاكم ماليندي "السلطان أحمد" على ولائه للبرتغاليين بتعينه حاكمًا على ماليندى ومُمباسا عام ١٥٩٠. كما اتخذ البرتغاليون تدابير احترازية لضمان السيطرة على المدينة الثائرة فبنوا عام ١٥٩٣ حصنًا عسكريًا أطلقوا عليه اسم حصن يسوع (المسيح) (٢). ومع بناء الحصن أصبحت مُمباسا مركز أحد أهم معاقل السلطة البرتغالية شمال ساحل شرق أفريقيا، حيث أقام منشآت للجمار عام ١٥٩٤، وأجبروا السفن القادمة من الهند إلى أوروبا بالتوجه إليها، ودفع رسوم جمركية تصل إلى ٦% من واقع ما تحمله السغن من بضائع(٣). ومما تجدر الإشارة إليه أن نجم

=قواته وأسره، وإسدال الستار على محاولات العثمانيين القضاء على الوجود البرتغالى فى ساحل شرق أفريقيا. قاسم، جمال زكريا: المرجع السابق، ص ٧٤.

(1)Barbosa, Duarte, A Description of the Coast of East Africa and Malabar in the Beginning of The Sixteenth Century, Tanslated frome an Early Spanish Manuscript in the Barcelona Library, with notes and a pbeface by The Hon. Henry E. J. Stanley, London, Printed for the Hakluyt Society, p.12.

(٢) صمم الحصن المعمارى الإيطالى جيوفانى باتيستا، وبدأ العمل فى بناءه فى ١١ أبريل ١٥٩٣، وتم الانتهاء فى ١٥٩٦، وأخذ الحصن شكله النهائى عام ١٦٣٩. صُمم الحصن بحيث يجعل ظروف الحياة داخله محتملة خلال حصار طويل، إذ يصل طوله إلى مئة وخمسين ياردة، وعرضه مئة وثلاثين ياردة، وصُمم الفناء المركزى، الذى يبلغ امتداده خمس وسبعين ياردة تقريبًا، بحيث تحيط به ثكنات الجنود ومخازن الذخيرة وكنيسة صغيرة، يحمى كل ذلك جدران تشبه الستائر، إضافة لبئر عميقة لمياه الشرب، أما أسوار الحصن المواجهة للبحر، فترتفع فوق منصة من الصخر المرجانى، وقد ملئت بكتل صخرية ضخمة، ما يكفى لمواجهة أى مدافع بحرية يمكن تصورها فى نهاية القرن السادس عشر، وفى أسفلها وجدت الدفاعات الخارجية. وقد شارك فى بناء القلعة عمال من ماليندى أرسلهم حاكم ماليندى للمساعدة فى تشييد الحصن. كانت حامية الحصن تتكون من نقيب ومائة جندى.

Pradines, Stephane, the Portuguese Fortresses in East Africa, Fort, Voll. 44, 2016, p.64. G.S.P. Freeman, The East African Coast: Select Documents from the First to the Earlire Nineteenth, Oxford, Clarendon Press, 1962, p.175.

(3)Omulokoli, Watson A.O., Op. Cit, p. 143.

ماليندى التى كان البرتغاليون يعتمدن على موالاة حكامها بدأ يخبو بعد إنشاء هذه القلعة، وانتقال الحامية البرتغالية من ماليندى إليها(١).

حرصت القيادة البرتغالية على صناعة وتصعيد نخب موالية لها من حكام الساحل، لتظل هذه النخب تسير في ركاب السياسة البرتغالية، وتقدم خيرات مدنها قربانًا للولاء والطاعة؛ مقابل أن تنعم أنظمتها الحاكمة بالأمن والاستقرار طالما ظلت مذعنة للإملاءات البرتغالية، وإن كانت التجارب أثبتت عدم دوام الوفاق بين هذه النخب والبرتغاليين، الذين كانوا يحرصون دومًا على مد القنوات والجسور مع أطراف أخرى داخل أروقة الحكم، وجعلها في حالة من الاستعداد الدائم لتكون البديل الجاهز في الوقت المناسب لهذه النخب المستسلمة؛ إذا ما استنفذ البرتغاليون أغراضهم منها.

وبالرغم من المساعدات البرتغالية لهؤلاء الحكام، إلا أنهم لم ينجحوا فى كبح جماح ثورات الأهالى الساخطين على الوجود البرتغالى، يوضح هذا الأمر جزء من نص خطاب أرسله غوفرنسكو دى جاما نائب الملك فى الهند، إلى قائد حامية مُمباسا، راى سوارس دى ميلو، عام ١٥٩٤، يقول فيه:" إنى آمرك أن تخمد الفتنة الثائرة فى الجزيرة الخضراء(٢)، التى هى مصدر الثورات والاضطرابات ضد قلعة مُمباسا، وأن تعمل جاهدًا فى تأييد سلطانها الجديد، الذى ستوليه فى كل أمر". يتضح من هذه الرسالة استمرار ثورة السواحيليين على الوجود البرتغالى، وإن تفاوت صدى الثورة ومداها من مدينة لأخرى(٣).

---

(١) قاسم، جمال زكريا: مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

(٢) كانت بيمبا تُعرف باسم الجزيرة الخضراء، وهى من أعمال مُمباسا، تقع شمالى زنجبار، وتتمتع بخضرة أراضيها، وكثرة أمطارها، وطيب هوائها. كرفجال، مارمول: إفريقيا، ترجمة: محمد حجى وآخرون، الجزء الثالث، الرباط، مكتبة المعارف، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٢٣٤.

(٣) المغيرى، سعيد بن على: جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، تحقيق: محمد على الصليبى، الطبعة الرابعة، مسقط، وزارة التراث القومى والثقافة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ١٨٩.

كما يمكن أن نلمس أيضًا من الرسالة أنه كان ثمة مشكلة فى تعامل المستوى الثانى من القادة البرتغاليين مع النخب السواحيلية الموالية لهم من حكام الساحل، حيث كانوا يعاملونهم بمزيج من التكبر والازدراء، ولم يحافظوا على اتفاقاتهم معهم، ووعودهم لهم، وتجاهلوا – فى كثير من الأحيان– تعليمات القيادة العليا، بضرورة التعامل اللائق مع هؤلاء الحكام [١]، يرجع ذلك إلى شكوك البرتغاليين فى ولاء الحكام المسلمين، وفى أنهم ينتظرون الفرصة السانحة للتنكر لتعهداتهم، وأنهم لن يحيدوا عن موقفهم ضد المسيحيين أبد الدهر، متى استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، خاصة أن البرتغاليين جردوهم من سلطتهم ونفوذهم فى الهند، وفى السواحل المحاذية لممالكهم، وأرغموهم على دفع إتاوات، وعلى طلب الأمان لشدة خوفهم على عروشهم[٢].

يمكن القول أن علاقة الطرفين كانت قائمة على المصالح المتبادلة والشك المتبادل، لذلك؛ كان القادة البرتغاليون يرغبون فى رؤية دمى من الطبقة الحاكمة فى السلطة، يحركونهم كيفما شاءوا، وليس حكامًا حقيقيين، يحظون بالاحترام والتوقير الواجب، مخافة أن يغدوروا بهم فى أى وقت. وظلت التقارير تصل إلى لشبونة باستمرارعن الشكاوى المتكررة لحكام الساحل ضد المعاملة السيئة التى يعاملهم بها القادة البرتغاليين، وكانت أوامر نائب الملك فى جوا بمعالجة الأمر، واتخاذ خطوات لمنع هذه الشكاوى فى المستقبل، وضرورة الحفاظ على الصداقة مع السلاطين المحليين، ولكن ساحل شرق

(1) Salim, A.I, A Costa Oriental da Africa, in Bethwell Allan (Ed.) Historia Geral da Africa, Africa do Seculo XVI ao XVIII, UNESCO, Ogot – Brasília, 2010, p.901.

(٢) رسالة من نائب الملك فى الهند لملك البرتغال عن استعماله القوة ضد الممالك الإسلامية، كوشى، أول إبريل ١٥١٢م، الخليج العربى من خلال وثائق برتغالية، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦.

أفريقيا كان بعيدًا عن جوا، ولم يكن من الممكن إنهاء طريقة إدارة الأمورعلى الساحل بمجرد توجيه أومرسوم(١).

على الجانب الآخر، أظهر كثير من النخب الحاكمة قبول الحكم البرتغالى تفاديًا لمصير المدن التى قاومت وتم تدميرها، على سبيل المثال، قبلت الأسرة النبهانية فى "بات" (٢) الوجود البرتغالى كأمر واقع، وإن كان على مضض (٣). أما بالنسبة لـ"كيلوة " فقد كانت مقرًا للجمارك البرتغالية، وحاول حُكامها من خلال تحالفهم مع البرتغاليين إعادة بناء الأساس الاقتصادى للمدينة، ومع ذلك فإن الرافضين للوجود البرتغالى داخل الأسرة الحاكمة نفسها لم يدخروا أى محاولات لتغيير الوضع من خلال المؤامرات الداخلية، وكان اغتيال سلطان "كيلوة" عام ١٦١٤، دليلًا على السخط الداخلى على المتعاونيين مع البرتغاليين، نفس المصير واجهه حاكم ماليندي ومُمباسا، حسن

(١) رميض، غانم محمد: الصراع البحرى العمانى البرتغالى فى البحار الشرقية١٦٥٠ – ١٧٢٠، أسطول الإمام يطارد البرتغاليين فى الهند وعلى طول الساحل الأفريقى، المنامة، مجلة الوثيقة، المجلد السابع، العدد ١٣، مركز الوثائق التاريخية، ١٩٨٨، ص ٨٥.

(٢) وفدت هجرة كبيرة من عمان تزعمها أحد الملوك النباهنة، أواخر القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، واستطاع النباهنة تكوين سلطنة إسلامية تولت حكم شطر كبير من الساحل.استقرالنباهنة فى جزيرة بات، وتلقبوا بلقب "بوانافو مادى"، وهو لقب سواحيلي يعنى سلطان أو ملك، وانعكس ذلك على زيادة توافد العمانيين على ساحل شرق أفريقيا، حتى داهم النباهنة الخطر البرتغالى الذى استمروا بمقاومته طوال القرن السابع عشر.

Spear, Thomas, The Shirazi in Swahili Traditions, Culture, and History, History in Africa, Vol.11, Cambridge University Press, 1984, p.299.

(3)Van Wickeren Arnold, De Opstand van Mombaca. De Portugezen in Mombaca, Deel 22 Index, Hoofdstuk 3. https://www.colonialvoyage.com. 23/5/2019.

بن أحمد بعد حوالي عامين. كانت هذه الاغتيالات تعكس التوتر السائد بين النخب المؤيدة للبرتغاليين، والجماعات المناهضة للسيطرة البرتغالية داخل الطبقة الحاكمة، كما أوضحت أيضًا كيف استخدم البرتغاليون النخب السواحيلية ضد بعضها البعض(١).

ظلت زنجبار حليفًا مخلصًا للبرتغاليين على مستوى النخبة، لذلك لم يكن بها حضور برتغالى كبير كقوة، مكافأة لها على تعاون حُكامها، إلا أنها مع أول هجوم عماني على شرق أفريقيا عام ١٦٥٢ أعلنت استقلالها، كما فعلت مدينة مريما Mrima شمال مُمباسا، وكذلك جزيرة بيمبا، ورحبوا جميعهم بحكم إمام عُمان وأشادوا به(٢). كل هذا يدل أن أغلب المدن السواحيلية كانت بحاجة إلى مُخلص، سواء على مستوى النخب التى قبل بعضهم التعاون مع البرتغاليين حماية لمصالحهم، أم على مستوى الأهالى الذين لم يدخروا ثورة قد تخلصهم من البرتغاليين إلا وبادروا إلى إشعالها(٣). كان أهالى الساحل يشتكون بمرارة من البرتغاليين وتصرفاتهم، كما ضجوا من الضرائب والإتاوات التى فرضت عليهم، والرشاوى التى كان الموظفون البرتغاليون يطلبوها من التجار المحليين مقابل تسيير أعمالهم. وكثيرًا ما كتب سلاطين سيو وبيمبا وفازا لنائب الملك فى جوا شكاوى عن الظلم الذى تتعرض له شعوبهم. وبالرغم من ذلك، كانت الصراعات

(١) لم تدم العلاقات الودية طويلًا بين السلطان أحمد حاكم ماليندى والبرتغاليين بعد تثبيته على حكم مُمباسا، خاصة وأن الكابتن البرتغالى لحصن يسوع لم يتبع تعليمات نائب الملك بضرورة المحافظة على علاقات جيدة مع حليف مهم كالسلطان أحمد، وبعد وفاته عام ١٦٠٩، دخل ابنه حسن بدوره، فى نزاع مع الكابتن البرتغالى الجديد، مانويل ميلو بيريرا، حول حقوقه المتعلقة بحكم مُمباسا وبيمبا، وانتهى الأمر فى النهاية بقتله مسمومًا، بتحريض برتغالى على الأرجح.
Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.529.

(2) Ibid.

(3) Van Wickeren, Arnold, Zuidoost – Afrika, 1637- 1651. De Swahilikust in de Jaren 1635 tot 1651, Deel 22 Index, Hoofdstuk 4. https://www.colonialvoyage.com.

والمنافسات لا تزال تدور بين هؤلاء الحكام، لدرجة أنهم كانوا يشتكون بعضهم البعض، ويتحاكمون إلى البرتغاليين للفصل بينهم[١].

كانت ثورة/ تمرد حاكم مُمباسا وماليندى يوسف بن حسن أحد أبرز ثورات مدن الساحل فى القرن السابع عشر ضد البرتغاليين[٢]، وفى نفس الوقت كان يوسف أحد أبرز النخب التى صنعها البرتغاليون وانقلبت ضدهم، ففي عام ١٦٣١، قاد ثورة عارمة على طول خط الساحل ضد الوجود البرتغالى[٣]. والواقع، أن هذه الثورة تدل على أن ماليندي عندما حصلت على ما تريده من محالفة البرتغاليين، وهو السيطرة على شمال ساحل شرق أفريقيا ما لبثت أن انتهجت نفس نهج مُمباسا، وهو الثورة ضد الوجود البرتغالى، تزعم يوسف بن حسن الثورة ضد البرتغاليين، وعندما علم أن أسطولًا برتغاليًا يتقدم إلى مومباسا أسرع بتخريب المدينة، وهاجر هو ورجاله إلى اليمن، فى ذاك

(1)Ibid.

(٢) يطلق أغلب المؤرخين العرب عليها اسم ثورة، فى حين أنها فى نظر البرتغاليين تمرد، ممن ظنوا أنه حليفًا لهم، صنعوه على أعينهم، ورُبى فيهم صغيرًا، حيث تم إرسال يوسف بن حسن، حين كان عمره سبع سنوات إلى جوا، بعد قتل أبيه حسن بن أحمد، ليكون تحت إشراف البرتغاليين، وتم تعميده كمسيحى باسم دوم جيرنيمو تشنجوليا Dom Jeronimo Chingulia. وعهد بتربيته إلى طائفة سان أوغسطين. عاد يوسف إلى شرق أفريقيا في عام ١٦٣٠ كحاكم لمُمباسا وماليندي. واجه يوسف فور عودته عدم القبول من أفراد أسرته، لاعتناقه المسيحية، كما رفضه سكان مُمباسا، إضافة لذلك؛ كان هناك احتكاك بينه وبين أتباعه البرتغاليين، خاصة أنهم كانوا لا يحترمونه الاحترام الكافى الذى يحفظ له مكانته الملكية أمام رعاياه، بحسب ما جاء فى رسائله إلى نائب الملك. بالإضافة إلى هذه الخلافات، كان هناك تقارير تفيد بأنه بينما كان يتصرف كمسيحي علنًا، فى حين كان يمارس طقوس الإسلام سرًا، لذلك اعتبره قائد حصن يسوع بيدرو ليتاو دى جامبوا مرتدًا وخائنًا، وطلب إعادته لجوا لمحاكمته، ولكن يوسف قرر عدم الاستسلام للمحاكمة، واختار المواجهة والقتال ضد البرتغاليين.

Salim, A.I, Op. Cit, p.902.

(3) Ibid.

الوقت كان مسرح الأحداث يتهيأ لظهور لاعب جديد، تمثل فى اليعاربة، الذين قادوا الجهاد ضد البرتغاليين فى شرق أفريقيا(١).

بعد انتهاء هذه الثورة أدرك البرتغاليون عدم جدوى الاستعانة بالحكام المحليين فى حكم مُمباسا، وتم حكم المدينة حكمًا برتغاليًا مباشرًا، كما أدركوا أيضًا أنه من غير المجدى تحويل النخب من الحكام المسلمين إلى المسيحية، كما حدث مع يوسف بن حسن، حيث اتبع البرتغاليين سياسة تنصير النخب، بهدف زرع موالين لهم فى الحكم، يكونوا مسيحيين وفى نفس الوقت من أهل البلاد، ليسهل على أهالى الساحل تقبلهم، وفى نفس الوقت يقوم البرتغاليون من خلالهم بتنفيذ سياستهم، ولكن التجربة أثبتت أنه كان صعبًا للغاية استيعاب المسلمين، بالرغم النشاط التبشيرى البرتغالى الكبير (٢).

كان عقاب المدن السواحيلية الثائرة بعد القضاء على ثورة يوسف بن حسن عنيفًا، فقد تم مهاجمة "بات "وإنزال قوات برتغالية على أرضها، قاموا بالتنكيل بالأهالى، وقتلوا سبعين عربيًا من النبلاء، إضافة لقطع رؤوس مائتين آخرين، وهدموا أسوار المدينة، أما فى البحر فقد أضرموا النيران فى سبع سفن، كما تم إجبار سلاطين "بات" و"فازا" و"سيو" و"لامو" و"ماندا" على توقيع

(1)Omulokoli, Watson A.O., Op. Cit, p. 144.

قاسم، جمال زكريا: مرجع سبق ذكره، ص ٨٠

(٢) يرجع دخول المسيحية إلى ساحل شرق أفريقيا فى نسختها الكاثوليكية إلى بداية الوجود العسكرى البرتغالى فى شرق أفريقيا، إلا أن تأثيرها لم يحدث أثرًا ملحوظًا، بالرغم من الجهود التبشيرية العديدة التى تمت فى القترة من ١٤٩٨– ١٦٩٨، والوسائل المختلفة التى استخدمها البرتغاليون لتنصير المسلمين على وجه الخصوص.

Strandes, Justus, the Portuguese in East Africa - The Portuguese Period in East Africa, Translated from the German by: Jean F. Wallwork. Edited, with topographical notes, by J. S. Kirkman. (Vol. II of the Transactions of the Kenya History Society.) Published for the Society by the East African Literature Bureau, Nairobi, 1961, p. 319.

معاهدة سلام[١]. وما لبثت الأوضاع فى مدن الساحل أن تدهورت سريعًا، ففى عام ١٦٤٤، وصفت التقارير البرتغالية الوضع فى مُمباسا بأنه حرج. استمر الأمر على هذا المنوال حتى دخول العمانيين كطرف فاعل فى الأحداث فى ساحل شرق أفريقيا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر[٢].

نبهت ثورة يوسف بن حسن البرتغاليين إلى ضرورة تشديد قبضتهم على القسم الشمالي من الساحل، فأعادوا ترميم قلعة يسوع، وحرموا على حكام المدن السواحيلية استقبال مهاجرين من العرب ويمكن أن نجمل أثر البرتغاليين فى ساحل شرق أفريقيا فى ثلاثة ظواهر رئيسية: الأولي، اتجاه البرتغاليين لاحتلال الساحل وعزله عن الداخل الأفريقى، والاستئثار بمصادرالثروة. والثانية، اتجاه البرتغاليين إلى إثارة الحروب والمنازعات بين حكام الساحل، والهدف من ذلك إضعاف حكام الساحل لتؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر. أما الظاهرة الثالثة والأخيرة، فهى منع الاتصال بين أهالى ساحل شرق أفريقيا وعرب الخليج والجزيرة العربية، ولكن على الرغم من حرص البرتغاليين على قطع الصلات بين العرب وأهالى الساحل، إلا أن السواحيليين والأفارقة كانوا شديدى التعلق بعرب عمان، واستمرت علاقتهم بهم في ظل المعاناة المشتركة نتيجة الاستعمار البرتغالى[٣].

---

(١) سجل البرتغاليون ما حدث من عقاب لمدن الساحل فى وثائقهم، ومما جاء فيه:" فى عام ١٦٣٥ كان القبطان فرنسسكو أودى سيكاس، قائد حامية القلعة، وقهر باسم جلالته أهالى ساحل ماليندى الذين شقوا عصا الطاعة، وانضموا للظالم، وفعل فى أهالى بات وفازا عقابًا لا يعرفه أهل الهند إلى الآن، فهدم بيوتهم وخربها، وعاقب أهالى الجزيرة الخضراء، وعلى مسئوليته قتل سلاطين العصاة، ورؤوس رجالهم، وألزمهم دفع الجزية". وبالرغم من كل ذلك لم تسكن الثورة فى مدن الساحل.

Wickeren, Arnold, Zuidoost – Afrika, 1637- 1651. De Swahilikust in de Jaren 1635 tot 1651, Deel 22 Index, Hoofdstuk 4.
https://www.colonialvoyage.com.
(2)Ibid.

(٣) دافيدسون، بازل: أفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة: جمال أحمد، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص ٤١٦.

ثانيًا- العمانيون والآثار المترتبة على إخضاع التجارة لسيطرة البرتغاليين

شكلت مدن ساحل شرق أفريقيا قبل الوجود البرتغالى حالة تجارية فريدة من نوعها، وكانت امتدادًا لنمط التجارة في المحيط الهندي [١]، واعتمدت بشكل متساوٍ على آسيا والشرق الأدنى، كمصدر لمعظم السلع المصنعة، وكأسواق ارتادها أهالى الساحل كرجال أعمال، وكرواد التجارة المنقولة بحرًا مع سُفالة، حتى الجنوب من دلتا الزامبيزى[٢]. لذلك؛ فإن التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الشرقية يتشابك مع التاريخ العام للاستعمار البرتغالى، سواء فى آسيا أم فى أفريقيا، ومما لا شك فيه لعب العامل الاقتصادى دورًا كبيرًا فى تغيير ميزان القوى فى المنطقة، وإعادة ترتيبها سياسيًا، خاصة مع تحرر العمانيين من السيطرة البرتغالية، وتطلعهم لاستعادة دورهم التجاري فى المنطقة، وتزامن ذلك مع ظهور الأوروبيين الجدد الذين سعوا للحصول على نصيب وافر من تجارة المحيط الهندى [٣].

لمئات السنين كان السواحليون وأهالى جنوب شبه الجزيرة العربية لاسيما العمانيون والحضارمة يتفاعلون مع بعضهم البعض عبر المحيط اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا، نظرًا لوجودهم فى خليط من البيئات القارية والبحرية، مما مكنهم من التواصل وامتلاك مقومات التجارة والثروة[٤]. ومع وجود البرتغاليين كفاعل رئيسى فى المنطقة تأثرت الأوضاع الاقتصادية لكل من مدن الساحل

(1)De Carvalho, Luis Francisco, Op. Cit, p.14.

(2)Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.469.

(3) Sim, Teddy Y.H., Survival of the Portuguese Estado da India: Political Economy and Commercial Challenges 1700-50, Journal of Colonialism and Colonial History vol. 13.3 (2012), p.3.

(4) Sheriff, Abdul, The Persian Gulf and the Swahili Coast: A History of Acculturation over the Longue Durée, in The Persian Gulf in History, Edited by Lawrence G. Potter, New York, Palgrave Macmillan, 2009, p.173.

السواحيلي والخليج العربي. كان هناك وسيلتان أساسيتان يحصل من خلالهما أهالى الخليج على النقد، إما من الغوص وراء اللؤلؤ، أو عن طريق التجارة، لذلك؛ اعتمدت الحياة فى الخليج كما فى مدن الساحل الشرقي لأفريقيا بشكل كبير على التبادل التجارى مع العالم الخارجى. ومالبث أن اتّضح حصر استراتيجية البرتغال في المحيط الهندي والخليج العربي باحتكار التجارة فيهما، وهذا يعني العمل على تدمير الطور التجاري الإسلامي الذي كان يشكّل فترة مميّزة، والسيطرة بالتالي على الطرق التجارية باحتلال الموانئ الإستراتيجية(١).

كان من أكبر الآثار التى ترتبت على وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق، هو تحول التجارة الشرقية عن طريق الخليج العربى والبحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح. وعلى مدى قرنين استطاع البرتغاليون أن يفرضوا هيمنتهم على البحار، وكان السيطرة على التجارة العالمية أبرز صور هذه الهيمنة، الأمر الذي كان يشكّل أحد أهدافهم الجوهرية، حيث كان المحيط

(١) شهدت العقود الأولى من القرن السادس عشر سيطرة الامبراطورية البرتغالية على أكثر الموانئ تحقيقاً للربح في شرق إفريقيا، وملبار، وكنكان، والخليج، ومضيق ملقا؛ ففي عام ١٥٠٧م استولى ألبوكيرك على سوقطرة، لتصبح قاعدة لسدّ الطريق عن البحر الأحمر، ومن ثمّ حوّل كلّ اهتمامه إلى هرمز، التي تسيطر على مدخل الخليج العربي، لانتزاع كلا هذين الطريقين التجاريين المهمين من قبضة المسلمين. ومنذ عام ١٥٠٧م، تمكّن البرتغاليون من تشديد الخناق على تجارة عمان البحرية، حين سيطروا على عدة موانئ ومدن تجارية هامة في الخليج وتشمل جلفار وخصب، إضافة إلى المدن الساحلية الواقعة بين رأس الحدّ وشبه جزيرة مسندم، وتشمل موانئ: صور، وقريات، ومسقط، ومطرح، وسيب، وصحار، وخورفكان، ودبا، وليما. سلوت، ب. ج: عرب الخليج ١٦٠٢- ١٧٨٤، فى ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية، ترجمة: عايدة خورى، الطبعة الأولى، أبوظبى، المجمع الثقافى، ص ١٠٠.

الهندي آنذاك هو المركز الأساسي لتجارة العالم [١]. سعى البرتغاليون، بواسطة سلسلة من المستوطنات المحصّنة في المحيط الهندي، يساندها دوريات بحرية منتظمة، إلى تعزيز احتكارهم للتجارة بإلزام التجار المحليين شراء تصاريح مرور لضمان سلامتهم "كارتاز" Cartazes من "إيستادو دا إنديا Estado " da India ودفع الرسوم الجمركية[٢].

أحكم البرتغاليون السيطرة على طول طريق المحيط الهندى والبحر العربى وساحل شرق أفريقيا، من خلال استراتيجية التحكم فى المضايق والموانئ والجزر، وقاموا بتحويل التجارة إلى المناطق التى يسيطرون عليها، وفرضوا الجمارك والرسوم والضرائب على التجار المحليين، كما قاموا بعزل ساحل شرق أفريقيا عن المناطق الداخلية التى كانت تمده بسلعه التجارية، والتى كانت تُصدر بدورها إلى موانئ الخليج والجزيرة العربية والهند والشرق

---

(١) فليح: حسين على: زنجبار.. دراسة تاريخية للوجود العمانى فى شرق أفريقيا ١٨٠٦- ١٨٥٦، بغداد، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد الرابع والستون، ٢٠١٠، ص ٦٠.

(٢) كان وصول البرتغاليين إلى المنطقة نقطة تحوّل في تاريخ المحيط الهندي والخليج العربي لأكثر من سبب؛ فقد سعوا خلال النصف الأوّل من القرن السادس عشر، إلى تثبيت سيادتهم التنفيذية في المحيط الهندي بإبعاد التجّار المسلمين، وفرضوا بوجود سفنهم البحرية المسلّحة نظام شراء تصاريح المرور البحرية "الكرتاز" cartazes على سفن التجّار المسلمين غير المسلّحة. لقد حدّد تحوّل التجارة الشرقية من أيدي عرب الخليج، الذين كانوا لقرون عديدة بارعين في التجارة البحرية وخوض البحار، بدايةَ الانحدار الاقتصادي في المنطقة. وعلى الصعيد الأوروبي تمكّن البرتغاليون من تحويل تجارة التوابل من المراكز التجارية الرئيسة التقليدية في الإسكندرية والبندقية إلى لِشبونة وأنتويرب لتوزيعها في سائر أنحاء أوروب. وزارة شؤون الرئاسة: الأرشيف الوطنى الإماراتى، حضارة الإمارات فى عهد القوى الأجنبية فى الخليج، العهد البرتغالى.

https://www.na.ae/ar/archives/historicalperiods/emirateserasofcivilization.aspx.23/5/2019

الأقصى، مما أضر بالتجار المحليين، إضافة إلى ما سبق سياسة النهب والقرصنة التى مارستها السفن البرتغالية على كل السفن غير البرتغالية[١]، نتيجة لهذه السياسة تضاءلت إمدادات الذهب وغيره من السلع عبر الشبكات التجارية من المناطق الداخلية إلى مدن الساحل الشرقى لأفريقيا بحلول منتصف القرن السادس عشر، وكان لهذا الأمر تأثير كارثى على مدن الساحل، فقد شكل هذا الأمر ضربة لمورد مهم من موارد ثروتهم، مما أدي إلى كساد اقتصادي عام ابتليت به هذه مدن، وامتد ليشمل المنطقة بأثرها بشقيها الأفريقى والآسيوى [٢].

خلال المرحلة الأخيرة من انحدار الامبراطورية البرتغالية، واجه البرتغاليون مقاومة أهلية طبيعية فى مدن ساحل شرق أفريقيا، ومنافسة خارجية من قوى أوروبية أخرى، إضافة إلى الأطراف الإقليمية التى تضررت من سياسة البرتغاليين الاقتصادية كالقوة العمانية الصاعدة [٣]. كان تأسيس

---

(١) كان على السفن أن تتزود بتصاريح برتغالية، ويتم تفتيشها فى عرض البحر، وخاصة السفن العربية.

Mueller, Bernardo. Joao Gabriel Ayello, How the East was Lost, Institutions and Culture in 16th Century, Portuguese Empire, p. 1.

(٢) سلوت، ب. ج: مرجع سبق ذكره، ص ١٣٣.

(٣) يمكن إلى حد كبير إلقاء مسؤولية هذا التردى على كاهل شكل الحكم السائد فى لشبونة، والذى كان ينتمى للقرون الوسطى؛ فكل منصب رفيع – ومعه فرصة للثراء– كان يُمنح بحسب الهوى الملكى، ولم يكن للنبلاء الذين شغلوا مناصب كبرى فى الشرق إلا تكديس الثروات من خلال المنصب، ولم يكن الموظفين أكثر نزاهة من رؤسائهم، كما أن القرارات الهامة التى تحال إلى لشبونة قد تستغرق عامًا ونصف ليصل الرد فيها، لذا تُركت الأمور لنواب الملك فى الهند لحسمها من خلال رؤيتهم التى انعكس عليها الخوف من اتخاذ قرارات حاسمة مما أدى فى النهاية لضياع مزيد من الوقت والممتلكات.

Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.532.

الشركات التجارية الأوروبية فى مطلع القرن السابع عشر، ضربة قوية للوجود البرتغالى المستقر فى المنطقة، فقد تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠، وشركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢، حقق الهولنديون والإنجليز تفوقًا واضحًا، واستطاعوا أن يشقوا طريقهم عبر إضعاف وتحجيم النشاط البرتغالى فى الخليج العربى والمحيط الهندى، مما أدى إلى فقدان البرتغاليين الكثير من مقومات القوة لديهم، وقد توافق ذلك مع الأهداف العمانية الرامية إلى القضاء على الوجود البرتغالى فى المنطقة(١).

ومن أجل إحكام الخناق على البرتغاليين، وثّق الإمام ناصر بن مرشد(٢) علاقاته الاقتصادية بالإنجليز، وعقد اتفاقية مع شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٠٥٥- ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٥- ١٦٤٦م(٣). والواقع، إن تسلسل الأحداث فيما بعد يوضح لنا كيف تمكن العمانيون من اقتلاع البرتغاليين من المنطقة، وكيف أدى الوجود الأوروبي المنافس للبرتغاليين لضعف قبضتهم على مدن الساحل الأفريقى، مما مهّد لانتصار العمانيين عليهم، وطردهم من الخليج وساحل شرق أفريقيا، وتحرير التجارة من محتكريها بالتعاون مع الأوربيين

(١) الصالحى، عصام خليل محمد إبراهيم: السياسة البريطانية فى الخليج العربى، الأهداف والنتائج ١٦٠٠- ١٨٤٣، مجلة مداد الآداب، العدد الرابع، ٢٠١٧، ص ٤٥٢.

(٢) الإمام ناصر بن مرشد بن مالك بن أبى العرب اليعربي، مؤسس دولة اليعاربة، عقدت له البيعة بالإمامة عام ١٠٢٤هـ، فى مدينة الرستاق(١٠٣٤- ١٠٥٩هـ/ ١٦٢٤- ١٦٤٩م)، وإليه يرجع الفضل فى توحيد عمان تحت قيادته، ومواجهة البرتغاليين القابعين آنذاك فى موانئ البلاد وسواحلها. ابن قيصر، عبدالله بن خلفان: سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق: عبدالمجيد حسيب القيسى، الطبعة الثالثة، مسقط، وزارة التراث والثقافة، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص ١٠ .

(٣) سعد، نيفين مصطفى حسن: جهاد اليعاربة ضد الاستعمار البرتغالى ١٠٣٣- ١١٣١هـ/١٦٢٤-١٧١٨م، القاهرة، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد ٤١، جامعة عين شمس، مارس ٢٠١٧، ص ٧٨.

الجدد فى المنطقة [١]. يرى البعض أن هذا التعاون فرضه واقع إخضاع البرتغاليون تجارة الشرق لسيطرتهم، بطريقة لم تترك لأى قوى أخرى متنفس للحركة والعمل، إضافة لفساد الإدارة البرتغالية كليًا، مما أدى إلى اضطرار القوى التجارية الصاعدة إلى الالتفاف حول مناطق النفوذ البرتغالى[٢]، وتحويل التجارة فى اتجاه آخر بعيدًا عن سيطرتهم، مما أدى إلى صعود طرق بديلة للعديد من السلع، من جنوب غرب آسيا إلى البحر الأحمر والخليج العربى، ومن مدن الساحل الأفريقى للخليج والهند [٣]. كما أدت المنافسة بين القوى الأوروبية الثلاث إلى وقوع اشتباكات دامية بينهم[٤]، أضعفت مركز البرتغاليين التجارى والعسكرى، مما صب فى صالح العمانيين ومشروعهم التحررى [٥].

لذلك؛ يمكن القول بأن كسوف القوة البرتغالية كان نتيجة الفشل المؤسسى، وسوء فهم للديناميات المحلية للتجارة، وسعيهم للسيطرة على تجارة المحيط الهندى بغض النظر عن مآلات الطرق المستخدمة لتكريس هذه

(1) Steensgaard, Niels. The Asian Trade Revolution of the Seventeenth Century the East India
Companies and the decline of the caravan trade, The University of Chicago Press, Chicago, 1975, p.9.
(2) Ibid.
(3)De Carvalho, Luis Francisco, Op. Cit, p.14.

(٤) استخدم الإنجليز والهولنديون القوة العسكرية للحصول على الامتيازات التجارية على حساب البرتغال، كما تعاونا من أجل القضاء على الوجود البرتغالى فى الخليج، تحقق ذلك فى معركة بندر عباس البحرية عام ١٦٢٥، حيث قام الأسطولان الإنجليزى والهولندى بحملة بحرية مشتركة حققا فيها الانتصارعلى الأسطول البرتغالى. ويلسون، أرنولد تالبوت: الخليج العربى، ترجمة: عبدالقادر يوسف، دار الفجر للطباعة والنشر، د.ت، ص ١٣٢. الصالحى، عصام خليل محمد إبراهيم: مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٥.

(٥) الخطيب، مصطفى عقيل: التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢– ١٧٦٣، بيروت، المكتبة العصرية، د.ت، ص ٦٧.

السيطرة[١]، إضافة إلى عدم القدرة على التكيف مع أنماط الاقتصاد الحديث، ومتطلبات السياسة والحياة المتغيرة [٢]. خاصة أن الأوروبيين الجدد لم يقتطعوا جزءً من الأرباح التجارية لأنفسهم فحسب، بل قاموا بعمليات عسكرية ضد المؤسسات والسفن البرتغالية، وتحالفوا مع الحكام المحليين بغية طرد البرتغاليين [٣]. على سبيل المثال، كان مما زاد الموقف البرتغالى سوءً؛ فقدان هرمز بسقوط الحصن البرتغالى فى مدخل الخليج العربى عام ١٦٢٢، نتيجة للهجوم الفارسى– البريطانى المشترك [٤]، كان فقدان هرمز بشكل نهائى إيذانًا بالمواجهة الأكبر، فلم يتمكن البرتغاليون من السيطرة على الثورات التي قامت ضدهم فيما بعد، ولا على مواجهة تكتل مختلف القوى ضدهم[٥].

(1)De Carvalho, Luis Francisco, Op. Cit, p.14.

(٢) كان تفوق شركات الهند الشرقية الهولندية والإنجليزية على "دولة الهند" البرتغالية يبشر بتغيير هيكلي في التجارة الدولية، كما كان مؤشرًا على توارى نظم سياسية واقتصادية وصعود نظم أخرى أكثر تفاعلًا من أدوات وسمات العصر.

Steensgaard, Niels. Op. Cit, p.7.

(٣) سلوت، ب. ج: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٤) فى ٢٣ أبريل ١٦٢٢ سقطت هرمز فى يد الصفويين والإنجليز، واستسلم البرتغاليون الموجودين بها، وبسقوط هرمز سقط وضع البرتغاليين فى الخليج تمامًا، وتهيأت الفرص لعرب عمان لطرد البرتغاليين من بلادهم، كما طردوا من هرمز، كانت هزيمة هرمز عاملًا مساعدًا فى إسراع العمانيين فى إعادة الإمامة وإقامة دولة اليعاربة التى تصدت للبرتغاليين. لوريمر، ج .ج: دليل الخليج، القسم التاريخى، الجزء الأول، ترجمة: قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، الدوحة، د.ت، ص ٤٢.

لمزيد من المعلومات حول سقوط هرمز وتداعياته، انظر:

Salman, Mohammed Hameed, Aspects of Portuguese Rule in the Arabian Gulf, 1521-1622, PhD, University of Hull, 2004, P.222.

(٥) هول، ريتشارد: امبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة: كامل يوسف حسين، الطبعة الأولى، أبوظبى، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٩، ص ٣٩٥.

وفى غضون ما لا يزيد على خمسين عامًا، كان احتكار البرتغاليين للتجارة فيما وراء رأس الرجاء الصالح قد تهاوى [١]، مما أثر على قدرتهم المادية فى المحافظة على نظامهم الدفاعى. وقد أحسن أئمة عمان استثمار هذا الصراع، لطرد البرتغاليين من مسقط، وتعقبهم فى موانئ الهند والساحل الشرقى لأفريقيا [٢]، كونهم يمثلون الخطر الأكبر، بتحكمهم فى الطرق التى ربطت موانئ الجزيرة العربية بالهند وشرق أفريقيا، وتضييقهم على التجار العرب، ورغبتهم فى فصم عُرى اللُحمة التاريخية التى ربطت العمانيين بأهالى

(١) تمثلت الضربة القاسمة للبرتغاليين فى فقدان ملقا عام ١٦٤١، وسيلان عام ١٦٥٨، عندما استولى عليهما الهولنديون، وقبلها احتكروا التجارة الصينية، بعد أن نجحوا فى إجلاء البرتغاليين من كولومبو عام ١٦٥٦. وبذلك احتكر الهولنديون تجارة التوابل. والواقع، أن انهيار تجارة القوافل، وهزيمة البرتغاليين أمام الشركات الأوروبية، كان جزءًا من المواجهة بين رجال الأعمال الجدد والقدامى بالمنطقة، كما كان أيضًا جزءاً من الصراع بين القوى الأيبيرية الكاثوليكية والقوى البروتستانتية، وقد صب هذا الأمر فى صالح القوى العمانية الساعية لتحرير الأرض والتجارة.

Danvers, F.C., The Portuguese in India, Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire, London, 1894, p.321.

(٢) تمكّن العمانيون بقيادة إمام اليعاربة الأوّل ناصر بن مرشد، عام ١٦٣٣م ، من طرد البرتغاليين من جلفار ودبا، حيث كان البرتغاليون قد بنوا قبل ذلك، حصوناً وقلاعاً لهم، كما استعادوا صحار عام ١٦٤٣م. وقد استمرّ القتال إلى أن استعيدت مسقط آخر معاقل البرتغاليين عام ١٦٥٠م، تحت قيادة الإمام الجديد سلطان بن سيف. ومع نهاية القرن السادس عشر بدأت كلّ من بريطانيا وهولندا تبدي اهتماماً بإقامة روابط وعلاقات تجارية مباشرة مع الشرق، وكان وصول السفن البريطانية والهولندية في المحيط الهندي كمنافسين تجاريين لتحقيق السيادة على البحر، قد شكّل أكبر تحدٍّ كان على البرتغاليين أن يواجهوه في آسيا. لقد أدّى هذا التنافس على المدى الطويل إلى نهاية قوة البرتغاليين وازدهارهم الاقتصادي، وإلى انحلال وتمزيق إمبراطوريتهم الشرقية. سلوت، ب. ج: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٦.

ساحل شرق أفريقيا[١]. لذلك؛ كانت الخطوة التالية لأئمة عمان بعد تحرير الأرض، تأمين مسارات التجارة البحرية[٢]، خاصة أن البرتغاليين لم يلتزموا بالمعاهدات التى أبرمت بين الطرفين والمتعلقة بضمان سلامة حرية التجارة فى المنطقة، وقاموا بالقرصنة على السفن العمانية[٣].

كان على البحرية العمانية صد الهجمات البرتغالية، وتأمين مسارات السفن، عبر استهداف المواقع البرتغالية فى الهند وعلى الساحل الشرقى لأفريقيا، التى كانت تعتبر من المعاقل الحصينة للبرتغاليين، مما كبدهم خسائر فادحة [٤]، وصب فى صالح العمانيين الذى غنموا أموالًا وأسلحة، سدت جزءًا من حاجة أئمة عمان للمال لتسديد مستحقات الجنود والموظفين، الذين كانوا يحتاجونهم لجمع أجزاء دولتهم، ولتأمين التجارة، وفرض هيبتهم، فى ظل عصر كانت القوة العسكرية هى التى تؤمن تجارة ما وراء البحر. كما كان من المهم جدًا لليعاربة أن يسيطروا على التجارة الخارجية لعمان، خاصة أنه بعد تحرير مسقط أصبح ميناءها محور التجارة عبر الساحل الغربى للمحيط الهندى، وتجمعت فيه المنتجات المحملة من اليمن وشرق أفريقيا، وكانت ترسل بعدها إلى الحسا والبحرين وقطر والبصرة[٥].

---

(1)Steensgaard, Niels. Op. Cit, p.10.

(٢) عثمان، شوقى عبدالقوى: تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، الكويت، ١٩٩٠، ص ١٧٦.

(3)Bathrest, Martine, Trade and Imamate, London, 1955, p.203.

(٤) القاسمى، خلفان بن مبارك بن ناصر: تاريخ البحرية العمانية فى عصر دولة اليعاربة ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م-١٣١١هـ/ ١٧١٩م، رسالة ماجستير، مسقط ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ٢٠١١، ص ٨١.

(٥) رغم صادرات السكر والتمور إلا أن الميزان التجارى العمانى كان سلبيًا، وكان يتم التعويض عن ذلك النقص من عائدات التجارة العابرة. سلوت، ب. ج: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٦.

وبهذا، يمكن القول أنه من الناحية الاقتصادية والعسكرية شارك العمانيون، والإنجليز، والهولنديون – كلًا بحسب مصالحه وتوجهاته – فى تفكيك الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق، وبحسب قول لورد كيرزون فى كتابه فارس والمسألة الفارسية:" كان البرتغاليون متعصبين، وطغاة، ومجردين من الروح التجارية الحقة، خدموا سيف الرب كشعار للغزو، ولكن فى غمار إهمالهم المفعم بالازدراء للسلام، وفى غياب أى عبقرية استعمارية، فإنه لم يكن سهلًا عليهم الاحتفاظ بما امتلكوه، كان الأمر يتطلب فقط الظروف المواتية لسحب البساط من تحت أقدامهم مثلما حدث طوال سنوات القرن السابع عشر"(١).

والواقع، كان هذا سجالًا بين نظام اقتصادى عتيق لم يستطع تطوير نفسه، وبين نظامين رأسماليين ناهضين، وقوى إقليمية تبحث عن تأمين مصالحها عبر تحرير الأرض والتجارة من مغتصبها، فى حين كانت الطاقات البرتغالية موزعة بين تجارة التوابل التقليدية، والتنصير وفق المذهب الكاثوليكى، أما الإنجليز والهولنديين فكانوا معنيين بتحقيق الأرباح، وأما العمانيون فكانوا القوة العربية الإقليمية الوحيدة القادرة على مواجهة البرتغاليين، ومساعدة المسلمين فى التخلص من الاستعمار الجاثم فوق صدورهم، وقد استثمروا بذكاء الوضع السياسي والعسكري الضعيف للبرتغاليين إبان تلك الفترة، وانشغال القوى الأوروبية بمنافساتها الاستعمارية فى الهند، فى تأكيد وتثبيت قوتهم.

---

(١) جورج ناثانيال كورزون George Nathaniel Curzon سياسي بريطاني شغل منصب الحاكم العام للهند البريطانية في الفترة ما بين ١٨٩٩–١٩٠٥، ووزير خارجة بريطانيا فى الفترة ١٩١٩ – ١٩٢٤. Curzon, George N., Persia and the Persian Question (Vol 1). New York: Barnes & Noble, 1966, p 304.

ثالثًا- الرسائل والوفود التى أرسلها أهالى الساحل لطلب المساعدة من أئمة عمان

لعب العمانيون الأدوار الرئيسية فى التحولات التى حدثت فى ساحل شرق أفريقيا بدءاً من النصف الثانى من القرن السابع عشر، نظرًا لاستمرارالاتصالات بين مدن الساحل وشبه الجزيرة العربية(١)، بحيث ظل العمانيون والسواحيليون على علم بما يجرى فى الخليج والساحل(٢)، ساعد على ذلك قرب المسافة بين جنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا، واذا علمنا أن المسافة بين زنجبار ومسقط لا تتجاوز ٢٢٠٠ ميلاً، لأدركنا أن الامتداد العربى العمانى لشرق أفريقيا كان شيئًا طبيعيًا، فالقبائل العربية القريبة من الساحل الأفريقى أو كما عبر عنهم كوبلاند "بالجيران" Next door Neighbours(٣)، كان لابد لهم من مد يد العون لأهالى الساحل بحكم صلات الجوار والقربى والجهاد الدينى فى وجه العدو المشترك (٤).

كان من الطبيعى أن تستمر الحرب المقدسة فى سواحل شرق أفريقيا كما فى الخليج ضد البرتغاليين، خاصة مع استمرارالعالم الإسلامى بتقديم التغذية الروحية لمسلمى شرق أفريقيا، حيث هاجر العديد من الأفراد المتعلمين مع أسرهم من جنوب الجزيرة العربية، واستقروا فى شرق أفريقيا حوالى منتصف القرن السادس عشر،

(1) Pouwels, Randall L, Eastern Africa and the Indian Ocean to 1800; Relations in Historical Perspective, The International Journal of African Historical Studies, Vol.35, No.2/3, (2002), p. 317.

(٢) كانت نشأة سكان جنوب شبه الجزيرة – العمانيون والحضارمة على وجه الخصوص– فى بيئة بحرية ظهيرها صحراوى طارد، سببًا فى أن يولوا وجوههم شطر البحر للتجارة والهجرة، حيث انتشروا فى الجزر والمراكز الساحلية فى شرق أفريقيا، مثل، زنجبار وبيمبا، ومالندى وممباسا. المالكى، سليمان عبدالغني: دور العرب وتأثيرهم فى شرق أفريقيا، فى رءوف عباس (محرر): العرب فى أفريقيا، الجذور التاريخية والواقع المعاصر، القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٧، ص ١٢٢. ترمنجهام، سبنسر: الإسلام فى شرق إفريقيا، ترجمة: محمد عاطف النواوى، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ص ٧٣.

(3)Coupland, R., East Africa and its Invaders, London, 1956, p.21.

(٤) المالكى، سليمان عبدالغني: مرجع سبق ذكره، ص ٧٣.

واستطاعوا محو الأمية الدينية لأهالى الساحل، وقدموا نوعاً جديداً من القيادة، قوامه ليس التجارة فقط إنما التوحد فى مواجهة العدو المشترك، والجهاد لطرد الكافرين، لدرجة أن وصف البرتغاليون أهالى الساحل بأنهم حافظوا على شريعة محمد فى كل وقت(١).

فى عهد الإمام سلطان بن سيف الأول (١٠٥٩- ١٠٩٠هـ/١٦٤٩-١٦٧٩م)(٢)، دخلت عمان مرحلة جديدة من المواجهات مع البرتغاليين، وأدرك الإمام أن لا مجال للدفاع عن الشواطئ العمانية، وتأمين التجارة إلا بإمكانيات بحرية متقدمة، لهذا أهتم بتأسيس أسطول قوى(٣)، ووضع استراتيجية لمحاربة

(١) يربط البعض أن أحد أسباب استمرار العلاقة مع الجزيرة العربية هو استمرار تجارة الرقيق وترحيب البرتغاليين بها. Pouwels, Randall L, Op, Cit, p.318. والحقيقة، أن تجارة الرقيق لم تصل إلى درجة كبيرة من الانتعاش إلا فى القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين أى مع استقرار البرتغاليين فى شرق أفريقيا، ثم أخذت تزداد بشكل ضخم وممنهج عندما وصل الأوروبيون للقارة الأفريقية، وهم من ساهموا فى استفحالها. قاسم، جمال زكريا: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٨٥.

(٢) الإمام سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب، ابن عم الإمام ناصر بن مرشد، وخليفته فى الحكم، استمر حكمه ثلاثين عامًا، أتم فيها مهمة طرد العمانيين من بقية أجزاء الساحل العمانى، وتتبعهم وجاهدهم فى الهند وساحل شرق أفريقيا، وفى عهده عم الأمان والرخاء ربوع عمان. ابن زريق، حميد بن محمد: الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق: عبدالمنعم عامر، محمد مرسى، مسقط، وزارة التراث والثقافة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٢٨٤.

(٣) أصبح الأسطول العمانى له من القوة والنفوذ فى مياه الجزء الغربى من المحيط الهندى إلى الحد الذى أصبحت تخشاه القوى البحرية الأوروبية. وقد شك البرتغاليون أن الإنجليز فى بومباى كانوا يمدون أسطول اليعاربة بالذخيرة والأخشاب لصناعة السفن. تألف الأسطول العمانى من ثمان وعشرين سفينة كبيرة الحجم، وعشرين من المتوسطة الحجم. إضافة للتسليح العالى، تميزت البحرية العمانية بالسير وفق نظام عسكرى دقيق، لا يقل عن مثيلاتها الأوروبية، ساهم فى ذلك تراكم الخبرات العمانية من المواجهات مع البرتغاليين. قاسم، جمال زكريا: الاستعمار البرتغالى وأثره على العلاقات العربية الأفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠. شاكر، محمود: موسوعة تاريخ الخليج العربى، عمان الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ص ٣٠٩.

البرتغاليين، وحرمانهم من أهم مصادر القوة لديهم، وهى القواعد التى توفر لهم الإمدادات، فى الخليج والهند وشرق أفريقيا [١]. نجح الإمام عام ١٦٥٠ فى تم طرد البرتغاليين من مسقط، وبتحرير مسقط انتهت سيطرة البرتغاليين على الملاحة حول ساحل شبه الجزيرة العربية، وأصبح بإمكان التجار العرب التحرك بحرية فى مياه الخليج بحماية رايتهم الخاصة[٢]، ومنذ ذلك الوقت بدأ طور جديد من أطوار الصراع العمانى– البرتغالى، لتأمين محيط عمان الاستراتيجى فى مياه الخليج، وساحل شرق أفريقيا [٣].

شجع ذلك الانتصار مسلمي ساحل شرق أفريقيا على أن يطلبوا المساعدة من بني دينهم، وقد شعروا أن وقت تحررهم قد حان. كان من الطبيعى أن يرنوا أهالى الساحل بأنظارهم تجاه عمان، ويعقدوا عليها آمالهم للتحرر، فرغم اختلاف أنساب العرب المهاجرين للساحل الشرقى لأفريقيا، إلا أن أحفاد هؤلاء المهاجرين مدفوعين بإدراكهم بأصلهم العربى– الأفريقى المشترك استنجدوا بعرب عمان، دون غيرهم من الدول الإسلامية القوية، كالدولة الصفوية والدولة العثمانية، كون العمانيين الأقرب إليهم نسبًا وجوارًا، والأوثق صلة بهم، إضافة للمصلحة المشتركة لأعداد كبيرة من العرب المقيمين والتجار على الساحل السواحيلي الذين تضررت مصالحهم نتيجة السياسات الاقتصادية البرتغالية[٤].

(١) السيار، عائشة على: دولة اليعاربة فى عمان وشرق إفريقية ١٦٢٤– ١٧٤١، الطبعة الأولى، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥، ص ٦٩.

(٢) قاسم، جمال زكريا: الصراع العمانى – البرتغالى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد العاشر، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣٤١.

(٣) سلوت، ب. ج: مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.

(٤) العيدروس، محمد حسن: السلطان سعيد والعلاقات العربية – الإفريقية، الطبعة الأولى، أبو ظبى، دار المتنبى للطباعة والنشر، ص ١٢.

وفى إطار هذه الرؤية بعث حُكام بات، وزنجبار، وبيمبا يطلبون المساعدة من الإمام سلطان بن سيف[١]. وقد عُثر فى أرشيف مدينة جوا بالهند، على وثيقة هى عبارة عن رسالة كتبتها الملكة فطومة بنت محمد الكبير، حاكمة كلوة كسيوانى للإمام سلطان بن سيف، ومن خلال النص المترجم عن اللغة السواحيلية التى كُتبت بها الرسالة، تحمل الرسالة دعوة للعرب العمانيين للقدوم إلى الساحل الأفريقى، بعد أن نجحوا فى طرد البرتغاليين من الساحل العمانى، وتحث الرسالة العمانيين على القدوم بأمان إلى هذا الإقليم، والعيش فيه، دون أن يتعرض أحد لأملاكهم، كما ركزت الرسالة على العلاقات التاريخية بين الجانبين، وأنه ليس هناك عداوة بين السواحيلي والعربي، وتكمن قيمة الرسالة فى الكشف عن العلاقة التى ربطت اليعاربة بالنخب الحاكمة فى ساحل شرق أفريقيا الذين رفضوا التعاون مع البرتغاليين[٢].

كما أرسل أهالى مُمباسا وفدًا سريًا للإمام يحثه على نجدة المدينة وأهلها من جور وتعصب البرتغاليين، واستهدافهم لتنصير المسلمين، وشكوا إليه الفظائع التى يرتكبها البرتغاليون فى مُمباسا، وغيرها من مدن الساحل. أغتنم الإمام فرصة استنجاد حكام وأهالى مدن الساحل به، ولبى ندائهم بترحاب، وأرسل أسطوله إلى الساحل السواحيلي، عامي ١٦٥٢/ ١٦٥٣. وقد استطاعت القوات العمانية تدمير كثير من التحصينات البرتغالية فى زنجبار وبات، وإبادة معظم أفراد الحامية البرتغالية الموجودة بهما، كما قتلوا قائد حامية زنجبار. كان لوجود الأسطول العمانى أثره المطمئن فى نفوس الأهالى، مما شجعهم على الثورة، فقاموا بقتل وأسرعددًا كبيرًا من البرتغاليين الموجودين

(1)Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.532.

(٢) فليح، حسين على: مرجع سبق ذكره، ص٦٤.

فى بيمبا، وزنجبار، وبات [١]. وعلى اعتبار أن معركة زنجبار هى أولى المواجهات بين البحرية العمانية والبرتغاليين فى شرق أفريقيا، فإن نتيجتها تعد انتصارًا كبيرًا للعمانيين، نظرًا لقرب زنجبار من مراكز تموين الأسطول البرتغالى فى موزمبيق، كما أن مباغتة البرتغاليين فى معقل كبير كزنجبار كان دليلًا على جاهزية البحرية العمانية، وقدرتها على مهاجمة تحصينات دفاعية قوية كالموجودة فى زنجبار، ساعد على ذلك مؤازرة سكان الجزيرة للقوات العمانية، التى ساهمت بلا شك فى ترجيح كفة العمانيين[٢].

غنم العمانيون فى هذه المعركة ثلاث سفن برتغالية، تم أسرها وهى ملقية مراسيها فى المرفأ، كما تم تدمير تحصينات ماليندى الحليف البارز للبرتغاليين، واحتل العمانيون دورها وأراضيها. تم إنزال حوالى ثمانمائة من القوات العمانية إلى شاطئ مُمباسا، ووقف جوزيف بوتلهو دى سيلفا Joseph Botelho Silva قائد حامية حصن يسوع يراقبهم عاجزًا، وهم يمضون جيئة وذهابًا فى المدينة، فلم يكن لديه إلا حفنة قليلة من الجنود تحت إمرته لا يستطيع أن يخوض بهم معركة ضد العمانيين وهو يعلم أنها خاسرة، نظرًا لانضمام أهالى مُمباسا للجانب العماني [٣].

كانت الرياح الموسمية التى يتحكم اتجاهها بخط سير وتوقيت الحملات البحرية سواء تجارية أم حربية سببًا فى رجوع الأسطول العمانى إلى قواعده[٤]. وبالرغم من أن العمانيين تركوا حاميات عكسرية عمانية، لمساعدة أهالى الساحل على رد العدوان البرتغالى، إلا أن ضخامة الحملات البرتغالية جعلت

(١) التكريتى، سليم طه: المقاومة العربية فى الخليج العربى، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٢، ص ٥٨.
(٢) القاسمى، خلفان بن مبارك بن ناصر: مرجع سبق ذكره، ص ٨٥.
(٣) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٥٠.
(٤) السيار، عائشة على: مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

الساحل عرضه لانتقام البرتغاليين كل عام، خاصة فى الفترة الممتدة من أبريل حتى ديسمبر، بسبب توقيت الرياح المواتية للإبحار[١].على الجانب الأخر أدرك البرتغاليون خطورة الاتصالات بين السواحيليين والعمانيين، لذلك أرسلوا حملة عسكرية بقيادة فرنسيسكو دى كابيرا Francisco de Cabera، لإخماد الثورات على الساحل واخضاعه لسيطرة البرتغاليين، ومعاقبة الحكام الذين راسلوا اليعاربة، وساعدوا العمانيين فى طرد الحاميات البرتغالية[٢]. كانت الحملة مكونة من ١٢٠ جندى برتغالى، و ٤٠٠ من الهنود، و ١٢٠ سواحيلي جندهم الحكام السواحيليين الموالين للبرتغاليين [٣]، نزلت الحملة بالقرب من بات، وتمكنت من تحرير الأسرى البرتغاليين، وأعادت بناء الحصون، كما ذهبت إلى زنجبار، وبيمبا، ولامو، فى مظاهرة عسكرية لاستعراض القوة، وفى كل مدينة كان البرتغاليون يقومون بالتنكيل بالأهالى، والانتقام منهم لمساندتهم للعمانيين[٤].

شهد الساحل السواحيلي خلال هذه الفترة أعنف أساليب الإرهاب لتثبيت نفوذ وسيادة البرتغاليين، خاصة مع أهالى مُباسا، الذين أنزل البرتغاليين بهم أشد العقاب[٥]، فكانوا يصلبون الأهالى عراة، وكان الأهالى أثناء تعذيبهم يحنون الرؤوس، والدموع تنساب على وجناتهم، بينما يرفع آخرون عيونهم إلى السماء وسط العويل، ويقوم آخرون بلطم وجوههم بقبضات أيديهم، ويلقون

(١) القاسمى، خلفان بن مبارك بن ناصر: مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

(2)IOR 1/3/140, Letter Viceroy to the King, 28 January 1653, p.4.

(٣) الغنيمى، عبدالفتاح مقلد: الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٨، ص ١٨٩.

(4)Genesta, Hamillton, The Story of Portuguose in East Africa (1497- 1729), London, 1955, p.66.

(٥) جيان: مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٣.

بأنفسهم منبطحين على الأرض[١]، كما قتل البرتغاليون الكثير من مشاهير رجالها، عقابًا لهم على تواصلهم سرًا مع اليعاربة، واستمر البرتغاليون فى الإمعان فى القتل والتعذيب حتى اشتد غيظ الناس منهم. وعلى إثْر ذلك أرسل أهالى مُمباسا وفدًا ثانيًا لطلب النجدة مرة أخرى بصفة عاجلة من الإمام سلطان بن سيف، وأَسْهَبَوا فى شرح ما أوقعه بهم البرتغاليون من تنكيل وعذاب، فقاد الإمام بنفسه حملة لشرق أفريقيا، ودخل جزيرة بات، حيث رحب به أهلها، ثم أخضع فازا وماليندى، اللتين كان حاكميهما حليفان للبرتغاليين، وكانا شوكة فى ظهر مقاومة أهالى الساحل، بدعمهما للقوات البرتغالية، وكونهما بمثابة قواعد استخباراتية تنقل أخبار وتحركات حكام وأهالى الساحل واتصالاتهم مع العمانيين. كان القضاء النخب الخائنة هذه المرة أولوية بالنسبة للإمام سلطان بن سيف لإدراكه خطورة تركهم، لذلك هاجم الإمام سلطان مدينة فازا، ونجح فى الاستيلاء عليها عام ١٦٦١، وترك بها حامية عمانية، تحسبًا لانتقام ابن جوانا شيخ فازا[٢].

قام الإمام بمحاصرة حصن البرتغاليين الرئيسى فى مُمباسا (حصن يسوع)، لمدة تزيد عن خمس سنوات ١٦٦٠– ١٦٦٥، وخلال فترة الحصار الطويلة كانت القوات العمانية تتلقى المساندة والدعم من أهالى الساحل وكذلك القبائل المحلية، الذين هبوا لمساعدة إخوانهم فى الدين[٣]. وبعد حصار دام خمس سنوات سقط الحصن بيد الإمام سلطان بن سيف، ولما دخله أصلحه، وأمده بالمؤن والذخائر، ونصب عليه حاكمًا، هو محمد بن مبارك

(1)Phillios, Wendell, Oman A History, Intl Book Center, 1971, p.63.

(٢) جيان: المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(3)Bathurst, R.D., The Yarubi Dynasty of Oman, Ph. D, Linacre College, Oxford, 1967, p.120.

المزروعى[١]. اتجه الأسطول العمانى بعد سقوط حصن يسوع إلى جزيرتى بمبا وزنجبار، حيث قامت السفن العمانية بتخليصهم من البرتغاليين، وإعلان تبعيتهم لحاكم عمان[٢]. كما أرسل الإمام قائده سالم الصارمى، عام ١٦٦٥، لنجدة الصوماليين، من ظلم البرتغاليين، فى أول حملة تمتد إلى بلاد الصومال منذ بدء الحملات العمانية على ساحل شرق أفريقيا عام ١٦٥٢، وقد نجح القائد العمانى فى إرغام البرتغاليين على الإنسحاب من أرض الصومال بعد حرب طاحنة، ثم سلم القائد العمانى السلطة إلى أهل البلاد ممثلين فى شيوخ القبائل[٣].

---

(١) التكريتى، سليم طه: مرجع سبق ذكره، ص ٥٨.

(٢) سجل الشيخ خلف بن سنان الغافري انتصارات الإمام سلطان بن سيف فى قصيدة مطولة، مما جاء فيها بخصوص معارك الساحل الأفريقى الأبيات التالية: وبمباسة أذاقهم بأسًا بئسًا سئت به الأصنام ... وغزا كلوة بكل كمي لم يثنى منه الغرار انثلام ... ولدى زنجبار زمجر فيهم رعد زجر لم ينج منه إعتصام. السالمى، نورالدين بن عبدالله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، الجزء الثانى، تحقيق: إبراهيم أطفيش الجزائرى، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧ هـ، ص ٦٢. هذا الشعر يدل على مدى تأثر العمانيين بهذه الانتصارات، وتوحد المشاعر بين إخوة الدين. والواقع، لقد حفظ لنا الشعر العمانى هذه المعارك بأماكنها التى كانت مدن ساحل شرق أفريقيا ميدانًا لها كزنجبار ومباسا وكلوة. الزبيدى، على أحمد: أصداء الغزو البرتغالى فى أدب الخليج، المنامة، مجلة الوثيقة، مركز عيسى الثقافى، المجلد ٧، العدد ١٤، يناير ١٩٨٩، ص ١٣٠.

(٣) عثر الدكتور عبد الرحمن النجار أثناء عمله فى الصومال على مخطوطة صومالية، تتحدث عن حملة القائد العمانى سالم الصارمى عام ١٦٦٥، لنجدة الصوماليين، من ظلم البرتغال، وطرد البرتغاليين من مُمباسا، ومما جاء فيها:" ورجع الأمير مسرور الحال إلى عمان، وأخبر الإمام أخبارًا سارة عن نهاية القتال، ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر، وذكر للإمام أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل، والخير الجزيل، لأنه دفع عنهم الذل والبلوى، وتفضل فسمع منهم الشكوى، وكان ذلك الوقت سنة ١٠٧٦هـ، وطاب قلب الإمام بذلك". تصور المخطوطة مدى فرح الصوماليين لاستجابة الإمام سلطان بن سيف وإرساله الأسطول العمانى لنجدتهم هم واخوانهم فى باقى مدن شرق أفريقيا. كما تشير إلى اسلوب العمانيين الحربى فى مواجهة البرتغاليين بكل قوة فى أى مكان يوجدون فيه، وإلى الخط السياسى=

ولكن نظرًا للاضطربات التى وقعت فى عمان أثناء غياب سلطان بن سيف لم يكن ممكنًا له أن يبقى طويًلا فى شرق أفريقيا، وما أن غادر الإمام حتى جمع البرتغاليون فلولهم وحاصروا الحصن، وتغلبوا على حاميته العمانية، وما لبثوا أن استعادوا مُمباسا مرة أخرى، واشتدوا فى معاملة أهلها، مما أدى لهروب عدد كبير من سكانها. من الملاحظ أن الحملات البرتغالية كانت تتجنب الاصطدام المباشر بالبحرية العمانية، إنما كانت تتحين فرصة رجوع القوة الرئيسية للعمانيين إلى مسقط، وتهاجم الجزر والمدن الساحلية فى شرق أفريقيا، أدرك البرتغاليون أن هجماتهم الخاطفة فى عرض البحر أكثر تأثيرًا من خوض معارك مباشرة مع العمانيين على الساحل، فى وجود ظهير معادى من أهالى الساحل، لذلك عملوا على شن هجمات خاطفة على السفن التجارية العمانية فى الخليج، أما فى ساحل شرق أفريقيا فقد كان يساعدهم على رصد تحركات العمانيين، وإرسال تقارير بالأوضاع، الحكام السواحيليين المتعاونيين معهم(١).

استمرت البحرية العمانية فى مهاجمة البرتغاليين فى جميع المواقع التى يسيطرون عليها، ليس فى الجزء الشمالي من ساحل شرق أفريقيا فحسب، بل وصل الأمر لتدبير هجوم على معقل البرتغاليين فى موزمبيق، وكادوا أن يسقطون القلعة البرتغالية، لولا انفجار لغم كبير أدى إلى رفع الحصار. كان هدف الإمام سلطان بن سيف تطويق البرتغاليين، وتعقبهم فى قواعدهم فى

=للعمانيين وهو أن أفضل من يحكم البلاد هم أهلها، من الشيوخ والعلماء وأهل الحل والعقد. انظر الجزء المنشور من المخطوط فى، النجار، عبدالرحمن: الإسلام فى الصومال، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، جامعة الأزهر، ١٩٦٦، ص ٩٩. شلبى، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء السادس، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٦٦٧.

(١) سلامة، مصطفى طه: المزارعة فى ممبسة ١٦٩٨– ١٨٨٨، رسالة دكتوراه غير منشورة، القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٢٥.

المنطقة، وفي إطار هذه السياسة كان يمد يد العون لكل من يناصر البرتغاليين العداء. لذلك؛ أرسل نائب الملك في جوا سنة ١٦٧٣ أسطولًا برتغاليًا ليجول مياه المحيط الهندى، لتأكيد السيطرة البرتغالية، مع تعليمات بمهاجمة مسقط، ولكن قائد الأسطول خشى من المدفعية القوية للحصون العمانية، كما خاف من الدخول فى مبارزة عسكرية غير مضمونة النتائج مع العمانيين، لذا اكتفى بضرب أسوار مسقط قبل أن ينسحب، وبعد انسحاب الأسطول البرتغالى أعد الإمام عشرة مراكب بتجهيزات حربية، وفى ديسمبر التالى هاجمت القوات العمانية البرتغاليين قرب ديو، وعادت محملة بالغنائم(١).

تلقى نائب الملك فى جوا دوم بيدور دى ألميدا Dom Pedro de Almeida تعليمات من ملك البرتغال بتوجيه اهتمام أكبر نحو ساحل شرق أفريقيا، خشية خسارة ما بين الساحل والهند، وبالفعل توجه نائب الملك لشرق أفريقيا وترك بعض التعزيزات فى سُفالة ومُمباسا، وهاجم بات، ولكن قبل أن يتمكن الأسطول البرتغالى من توسيع هجماته، وصلت قوة نجدة عمانية مكونة من أربعة سفن فى ١١ و١٢ ديسمبر ١٦٧٩، بقيادة محمد بن مسعود الصارمى. استطاع العمانيون بمساعدة أهالى الساحل من الضغط على القوة البرتغالية، وتم تحرير بات، بعد معركة استمرت حوالى ستة أيام، وقد أظهرت معركة بات عام ١٦٧٩ مدى التنسيق والتعاون بين القوات العمانية وأهالى الساحل، ثم تقدمت القوات العمانية نحو فازا وسيطرت عليها، واضطرت الحملة البرتغالية إلى الإنسحاب بحرًا واتجهت إلى موزمبيق(٢).

وبعد هذه الانتصارات تقدم أهالى ساحل شرق أفريقيا يطلبون من الإمام أن يقيم حاميات فى الساحل لحمايتهم فى حال عودة البرتغاليين، فرد عليهم

---

(١) مايلز، س.ب: الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة: محمد أمين عبدالله، الطبعة الثانية، مسقط، وزارة التراث والثقافة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص ١٧٥.

(2)Bathurst, R.D, Op. Cit, p.133.

الإمام بأن القوات العمانية لم تأت إلا لمساعدة إخوانهم فى الدين [١]، ولكنه تحسبًا لعودة البرتغاليين ترك حاميات من القبائل العربية لحماية الساحل، وعهد لكل قبيلة بحماية جزء من الساحل، فكانت زنجبار فى حماية قبيلة الحرث، وممباسا فى حماية المزارعة، وبات فى حماية النباهنة، وبهذا ضمن الإمام وجود أكثرية عددية عربية مستوطنة فى الساحل، بحيث لا يستغل البرتغاليون الفراغ العددي مرة أخري فى شن هجمات على مدن الساحل. ومرة أخرى يتم تطعيم الساحل بالهجرات العربية التى وقف فى وجهها البرتغاليون ومنعوها، لعلمهم بخطورتها على مستقبل وجودهم فى ساحل شرق أفريقيا[٢].

تعد معركة بات أخر حملة عمانية لأفريقيا الشرقية فى عهد الإمام سلطان بن سيف، إذ وافته المنية فى مدينة نزوى فى سنة ١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م، بعد حياة حافلة بالجهاد فى البر والبحر ضد البرتغاليين[٣]. وفى عهد الإمام بلعرب بن سلطان (١٦٧٩م- ١٦٩٢م)[٤] ساد الهدوء الحذر العلاقات العمانية – البرتغالية، وكانت السفن العمانية تقوم برحلاتها الروتينية

(١) الغيث، منى بنت محمد: امتداد دولة اليعاربة من عمان إلى ساحل الزنج شرق أفريقيا خلال الفترة ١٠٦٣- ١٠٩٠هـ/ ١٦٥٢- ١٦٧٩م، الرياض، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد ٢٠، يوليو ٢٠٠٩، ص ٢٢١.

(٢) الحجرى، عامر محمد: تاريخ العلاقات العمانية – الأفريقية، فى البحوث المقدمة لمؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، لجنة تدوين تاريخ قطر، ١٩٧٦، ص ٧٨٧.

(٣) المعولى، أبو سليمان محمد بن عامر بن راشد، قصص وأخبار جرت فى عمان، تحقيق: الهاشمى، سعيد بن محمد بن سعيد، الطبعة الثانية، مسقط، وزارة التراث والثقافة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤ م، ص ٢٥٤.

(٤) الإمام بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك، تولى بعد والده سلطان بن سيف الأول، وكان جوادًا كريمًا، محبً للعلم والعلماء، بنى حصن يبرين "جبرين" وانتقل إليه من نزوى. الإزكوي، سرحان بن سعيد: كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، الجزء الثالث، تحقيق وتقديم: محمد حبيب صالح، محمود بن مبارك السليمى، الطبعة الثانية، سلطنة عمان، وزارة التراث والثقافة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٢٣٤.

بين عمان وشرق أفريقيا، لحراسة السفن التجارية، أو التواجد لمنع الهجمات البرتغالية الانتقامية على الحكام الموالين للعمانيين، مثل، حكام بات، وسيو[١]. أصبحت "بات" منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر محور من محاور المقاومة ضد الوجود البرتغالى، نظرًا لاستقوائها بمساعدة العمانيين، وكان القائد البرتغالى لحصن ممباسا يرى أنه لا يمكنه المحافظة على أمن حاميته بدون الاستيلاء على بات، ومنع اتصالها بالعمانيين، لذلك؛ فى أغسطس ١٦٨٦، استعد البرتغاليون فى مُمباسا لمهاجمة "بات" بعد إعلانها الثورة، وقد شجعها على ذلك وصول أسطول عمانى من مسقط، وهروب البرتغاليين الموجودين فيها إلى مُمباسا، ولكنهم لم يشنوا عليها هجومًا إلا بعد انسحاب السفن العمانية منها بعد حوالى عام[٢].

لم تكن السلطات فى جوا تشجع إضعاف القوة العسكرية فى مُمباسا فى سبيل السيطرة على بات؛ وقررت أنه اذا ما تم السيطرة على بات، فيجب إعطاؤها إلى أمير "فازا"، أحد أخلص حلفاء البرتغاليين فى المنطقة، ليحكمها كممثل للبرتغال، لذلك تم التنسيق مع حاكم فازا ليقوم بترتيب الهجوم على بات. كان حاكم فازا على خلاف مع حاكم بات، نظرًا للمنافسة التجارية بينهما، إضافة لتخوفه من أن اتصالات حاكم بات بالعمانيين قد تكسبه قوة يستطيع بها ضم فازا والسيطرة عليها[٣]. وفى مايو ١٦٨٧ أبحر أسطول برتغالى من ممُباسا بعد وصول تعزيزات من جوا، كان على متنه شيخ فازا، ومعه ألفًا من الجنود، الذين جمعهم لمهاجمة بات، ورغم تمرد مائتان منهم،

(١) الحجرى، عامر محمد: مرجع سبق ذكره، ص ٧٨٥.

(٢) كيركمان، جيمس: التاريخ المبكر لعمان فى شرقى أفريقية ، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الخامس، مسقط، وزارة التراث القومى والثقافة، ذو الحجة ١٤٠٠هـ/ نوفمبر ١٩٨٠م، ص ٢٩٣.

(3) Mlis. S., Countries and Trades of the Persian Gulf, London, 1919, p.214.

وذبحهم من قِبل البرتغاليين[١]، إلا أن البرتغاليين استطاعوا بمساعدة حاكم فازا مداهمة بات، وسيو، ولامو، وماندا، وأمر ألميدا بالقبض على الحكام الأربعة لهذه المدن، بتهمة التمرد والتعاون مع عدو للبرتغاليين [٢].

وفى غضون أسابيع قليلة ألقى البرتغاليون القبض على حاكم "بات" واثنى عشر شيخًا من كبار مستشاريه، وتم إرسالهم إلى "جوا" حيث أُعدموا فى يوم الميلاد عام ١٦٨٨[٣]. وفى أوائل عام ١٦٨٨ وصل أسطول عمانى قادمًا من مسقط، حيث نجح فى استرجاع المدينة. وفى المجمل ظلت الحملات العمانية فى عهد الإمام بلعرب أقرب إلى الغارات[٤]. بالرغم من عدم اكتمال نجاح ثورات مدن الساحل إلا أنها أسهمت باستمراريتها وانتشارها فى أكثر من مدينة فى زيادة ضعف الموقف البرتغالى فى شرق أفريقيا، وفى إنهاك القوات البرتغالية والمتحالفين معها من نخب الساحل، خاصة أن القوة البرتغالية تقلصت إلى حد أنه لم يعد هناك قوة بشرية كافية لاحتلال المدن التى تمت معاقبتها، بل إلى حد أنه لم يكن من الممكن الهجوم على المدن الثائرة بغير مساعدة الحكام السواحيليين الموالين للبرتغال، ساعدت هذه الأوضاع ولا شك العمانيين فى حملاتهم على ساحل شرق أفريقيا، مستمدين شرعية الهجوم من النداءات التى وجهها لهم العديد من حكام وأهالى الساحل لتخليصهم من البرتغاليين، ومستفيدين من دعم أهالى الساحل لهم فى ساحات القتال [٥].

واصل الإمام سيف بن سلطان اليعربي (١١٠٤هـ-١١٢٣هـ/١٦٩٢م-١٧١١م) ساسية والده تجاه البرتغاليين، فقد كان يدرك أن البرتغاليين يرقبون الفرصة السانحة للانتقام من هزيمتهم فى مسقط، والعودة للخليج، وخاصة بعد تآمرهم مع

(١) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٦.
(2) Salim, A.I, Op. Cit, p.905.
(3) Olive. R., History of East Africa, Oxford, 1963, p.141.
(٤) كيركمان، جيمس: مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٤.
(٥) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٦.

الفرس فى التخطيط للهجوم على مسقط، لذلك صمم على ضرب مراكز البرتغاليين فى أفريقيا الشرقية، والقضاء عليهم وعلى الحكام المتعاونيين معهم [١]، فعمل على تتبع البرتغاليين ومهاجمة قواعدهم فى الهند وشرق أفريقيا من خلال أسطوله القوى، الذى أهتم بتطويره وتزويده بأحدث الأسلحة، حتى أصبح أعظم قوة بحرية غير أوروبية فى البحار الشرقية[٢]، لدرجة أن المقيم البريطانى فى بندر عباس عبر عن قلقه من تزايد القوة العمانية بقوله:" إنهم يجلبون المصائب الكبرى إلى الهند كما يفعل الجزائريون فى السفن الأوروبية". وكتب نائب الملك البرتغالى فى جوا إلى حكومته يحذر من خطر العمانيين، قائلًا:" لقد أصبح العرب على ثقة كبيرة بأنفسهم، بحيث تتطلب مواجهتهم إرسال أسطولًا كبيرًا، لا من أجل تدميرهم فقط، بل من أجل الحيلولة دون توجههم إلى مُمباسا، وهو ما أصبح بمقدورهم تحقيقه"[٣].

كان ضباط الإمام ينشرون الرعب فى المياه العربية والهندية والأفريقية، وتمكنوا من قضّ مضاجع البرتغاليين فى الهند وشرق أفريقيا، وفرضوا هيبتهم فى المحيط الهندى[٤]، من ناحية أخرى كانوا مصدر أمان لأهالى الساحل،

---

(١) يعد الإمام سيف بن سلطان، أحد أبرز حكام أسرة اليعاربة، أحسن السيرة، وأنصف الرعية، تسمى بالإمامة، ولقب بقيد الأرض، لضبطه الممالك، وتقييده البلاد بعدله. السالمى: مرجع سبق ذكره، ص ٩٦. الطائى، عبدالله محمد: تاريخ عمان السياسى، الطبعة الأولى، الكويت، مكتبة الربيعان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٦٦.

(2)Ingrams, W.H, Zanzibar its History and its People, London, H.F. & G. Witherby; First Edition, 1931, p.119.

(٣) ليونوفيتش، ميخين فيكتور: حلف القواسم وسياسة بريطانيا فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة: سمير نجم الدين سطاس، الطبعة الأولى، دبى، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ٢٠٠٩، ص ١٤٧.

(٤) كان الأسطول العمانى خمسة سفن ضخمة، تتسع لحوالى ١٥٠٠ رجل، كانت أكبر السفن تحمل ٧٤ مدفع، واثنتين فى كل منهما ٦٠ مدفع، وسفينة ذات ٥٠ مدفع، هذا إلى جانب ثمانى عشرة سفينة أخرى أصغر حجمًا، يتراوح تسليح كل منها من ١٢ إلى ٣٢ مدفع، وعددًا من القوارب، كل منها مسلح بأربعة مدافع أو ثمانية. لوريمر، ج.ج : دليل الخليج، القسم التاريخى، الجزء الثانى، ترجمة: قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر، الدوحة، د.ت، ص ٦٣٧.

مما شجعهم على الثورة، بغض النظر عن صداقة حُكامهم مع البرتغاليين، فعلى الرغم من صداقة ملكتى بيمبا وزنجبار للبرتغاليين إلا أن ذلك لم يمنع من التفاف أهالى بيمبا وزنجبار حول الراية العمانية، فكانت الثورة على البرتغاليين تبدأ فى مدن الساحل بمجرد ظهور السفن العمانية [١]. توالت ثورات مدن ساحل شرق أفريقيا ضد الوجود البرتغالى، خاصة أهالى جزيرة بيمبا، الذين عانوا من تصرفات البرتغاليين المقيمين على الجزيرة، إضافة للضرائب الباهظة التى كان يتم جبايتها منهم، فقد فرض عليهم البرتغاليون جزية سنوية تقدر بستمائة قفعة من الأرز (٣٦٠ رطلًا) [٢]، لذلك؛ كانت جزيرة بيمبا صاحبة أخر مقاومة مستقلة ضد البرتغاليين، حيث قام أهلها بطرد البرتغاليين من الجزيرة عام ١٦٩٤، وفى نفس العام أرسلوا رسلًا للإمام سيف بن سلطان لطلب المساعدة ضد البرتغاليين[٣].

كما أرسل أهالى مُمباسا وفدًا للاستنجاد بالإمام سيف، تفصيل هذا الأمر، أنه كان فى مُمباسا يومئذ عرب من المناذرة العمانيين، وفيهم رجل من البلوش يدعى الجمادار جوت[٤]، كان يتقصى الأخبار لصالح الإمام سيف بن سلطان، عن أحوال البرتغاليين، وقوتهم، وأعدادهم، وأمامن انتشارهم، فأشار الجمادار جوت على أهل ممباسا أن يكتبوا للإمام سيف، يستجيرون به من حكم البرتغاليين، فكتبوا للإمام كتابًا، وأرسلوه مع وفد منهم، صحبة الجمادار جوت إلى عمان، ولما وصل الوفد لعمان رحب بهم الإمام، وقابلهم بحفاوة،

(١) على، عبد النبى على أحمد: الصراع العمانى البرتغالى فى شرق أفريقيا ١٦٥٠–١٧٣٠، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٤ ص ٩٣.

(٢) المغيرى، سعيد بن على: مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

(3)Alpers, Edward & Ehret, Christopher, Op. Cit, p.529.

(٤) الجمادار كان لقب يعطى للجند من البلوش

ووعدهم بمحاربة البرتغاليين[١]. كان الوفد مؤلفًا من: شيخ بن أحمد الماليندى، وتموت بن موتوغو الكليندينى[٢]، وموشال بن ندار التنجانى، كما أرسلت كل قبيلة من قبائل الزنوج فى ممباسا مندوبًا، وهم: وريبى ودشئونى، وكامبا، ووكوما، ووجبانة ووربای، وجريامة، ودورمة، كما أرسلت قبيلة نابيكا مندوبًا عنهم، وأرسلت الجزيرة الخضراء مندوبًا، هو شمشوكة من سكان أوله[٣]. تدل أسماء وتشكيلة الوفد أن منظميه حرصوا على أن يكون مُمثلًا فيه غالبية مدن الساحل، وليس مدينة بعينها، أو حتى عرق بعينه [٤].

(١) المغيرى، سعيد بن على: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠.

(٢) اسم الكليندانى فى مُمباسا مشتق من الجلندى أو الجلندانى هذا الاسم يدل على استمرار بقاء النسب الجلنداني في شرق أفريقيا منذ سنة ٨٠هـ/٦٩٩م إلى سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م. الجلنديين هم قسم من قبيلة الأزد العمانية هاجروا إلى شرق أفريقيا، تحت قيادة سليمان وسعيد ابنا الجلندى. وتذهب بعض الآراء أنهم استقروا فى جزيرة مافيا، والبعض الآخر يرجح جزيرتى لامو أو بات. ويشير الاسم إلى تغلغل الجلندانيين في نسيج المجتمع الأفريقي بحيث إنهم صاروا يتسمون بأسماء أفريقية، مما يوضح أيضًا أن الأصل العربى العمانى أحد الأسباب التى جعلت أهالى الساحل يولون وجهوهم شطر عمان لتخليصهم من وطأة الاستعمار البرتغالى. النعمانى، سعيد بن سالم: الهجرات العمانية إلى شرق أفريقيا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٩ ، ص ٦٢.

(٣) ترجمت هذه الوثيقة من اللغة السواحيلية إلى اللغة العربية ومن ثم الإنجليزية للضابط البريطانى ج.ب. إمرى J.B. Emery، ونُشرت دون تعريف فى كتاب الكابتن الإنجليزى أوين فى كتابه،

Owen, W.F.W, Narratiue of Vayages, vol.1, New York, pp.249- 253.

(٤) المغيرى، سعيد بن على: مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠.

كما توجه أمير لامو إلى عمان[١]، طالبًا من الإمام التحالف معه، ومؤكدًا له أن أهالى الساحل على أتم استعداد للانضمام تحت لوائه لمحاربة البرتغاليين، وأن هذا هو الوقت المناسب للتدخل العمانى، وبعد أن استجاب الإمام سيف إلى طلبه، عاد أمير لامو فى صحبة القوات العمانية المتوجه للساحل، مما يدل على أن التنسيق بين الجانبين كان على أعلى مستوى، وكأن وجود أمير لامو وسط القوات العمانية بمثابة إعطاء شرعية للعمانيين فى استرداد الساحل من أيدى البرتغاليين بموافقة أهالى الساحل جميعهم عرباً كانو أم أفارقة، من الأهالى البسطاء أو من النخبة الحاكمة [٢]. تأكيدًا على هذا الأمر تم تعزيز القوة العددية للقوات العمانية برجال من بات ولامو وباقى مدن الساحل، ساهموا مع القوات العمانية فى محاصرة حصن يسوع وفى القتال ضد البرتغاليين، كونهم من أهل البلاد ويعرفون مكامن القوة والضعف فى المنطقة، وقد سجل البرتغاليون مشاهدتهم للجنود العمانيين وبجوارهم السواحيليين، يتوسطهم علم عمان الأحمر[٣].

(١) كانت إمارة لامو من أقدم الإمارات العربية التى ظهورًا على الساحل الشرق لأفريقيا، ويرجح أنها كانت مستقر ابنا الجلندى. كانت لامو من أكثر مناطق الساحل ملائمة لتمركز العرب العمانيين بها، نظرًا لقدم علاقتهم بهذه المنطقة، كما أنها تتوسط الساحل الأفريقى، وتخلو من نفوذ قبائل البانتو، وقد نمت مع الوقت، وأصبحت مركز تجارى هام لتجارة الحديد والذهب والعاج. قرقش، محمد: تاريخ الإسلام فى أفريقية مع دراسة للدور العمانى، الطبعة الأولى، صحار، مطبعة بسمة، ١٩٩٥، ص ٤٠٩. الزدجالى، هدى بنت عبدالرحمن: الهجرات العمانية إلى شرق أفريقيا وأبعادها السياسية والحضارية والثقافية، القاهرة، مجلة حوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٣، يوليو– سبتمبر ٢٠١٥، ص ١٣٣.

(2)Boxer, C.R & Carlos de Azevedo , Fort Jeaus and The Potuguese in Mombasa 1593- 1729, London, 1960, p.59.

(3) Genesta, Hamillton, The Story of Portuguose pioncar in East Africa (1497- 1729), London, 1955, p.157.

رابعًا- دور النخب الموالية للبرتغاليين في إطالة أمد الحصار العماني لحصن يسوع

استجاب الإمام سيف بن سلطان لدعوة أهالى ساحل شرق أفريقيا، وجهز أسطولًا مكونًا من سبعة سفن كبيرة، وعشرة زوارق مسلحة فى ١٥ مارس ١٦٩٦، ضم هذا الأسطول ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رجل، وعندما وصل الأسطول إلى مُمباسا رسى بالقرب من قلعتها، وتم تبادل إطلاق النيران بين حامية حصن يسوع والقوات العمانية، وبدأ منذ ذاك الوقت حصار العمانيين للحصن [١]. عندما وصل الأسطول العمانى قبالة مُمباسا، لاذ بعض البرتغاليين بالهرب بحرًا، ولكن الباقين فروا إلى حصن يسوع وتحصنوا به، لم يكن لدى قائد الحصن جواو رويز لياو João Ruiz Lia إلا حامية صغيرة مؤلفة من خمسين رجلًا، وفى الظروف العادية لم يكن يُسمح بدخول الحصن فى حالة الهجوم إلا للمسيحيين فقط، ولكن قائد الحصن دعا لدخول الحصن كل السواحيليين الذين يمكنهم حمل السلاح، ولديهم من الأسباب ما يحملهم على الولاء للبرتغاليين[٢].

شمل من دخل الحصن كل اللاجئين من مدن الساحل الذين رفضوا الزعامة العمانية، وبهذه الطريقة استطاع قائد الحصن حشد قوة قوامها ألفان وخمسمائة رجل داخل الحصن، وتمكن من التغلب على النقص العددى فى جنوده بالموالين للبرتغاليين من السواحيليين، واستقرت نساء ميليشياته السواحيلية وأطفالهن فى الخندق الجاف المحيط بالأسوار. حاول دخول الحصن محاربون من إحدى قبائل البر الأفريقية، وتدعى سيجيجو، وعندما وجه اللوم إلى قائد حرس البوابة لسماحه لهم بالدخول، مضوا إلى مدينة مُمباسا، وقتلوا ثلاثين رجلًا من القوات العمانية، وحملوا رؤوسهم عائدين بها

(1)Boxer, C.R & Carlos de Azevedo, Op. Cit, p.59.

(٢) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٢٦، ٤٢٧.

إلى الحصن دليلًا على ولائهم للبرتغاليين، لذا سُمح لهم بالدخول. مع مضي الوقت عانى المحاصرون من نفاذ المؤن، وقلة الإمدادات، حيث أحبط العمانيون محاولات إمداد المحاصرين من جهة البحر، وضيق عليهم أهالى مُمباسا جهة البر(١).

استطاع قائد الحصن إرسال مركب صغير لإبلاغ خبر الحصار العمانى للحصن للسلطات البرتغالية فى موزمبيق وجوا. وقد ألقى هذا المركب مراسيه أولًا فى زنجبار(٢)، التى عرضت ملكتها فاطمة بنت يوسف(٣) إمداد المحاصرين بالطعام حتى تصل النجدة، وهو وعد وفت به حتى نهاية الحصار. لعبت الملكة فاطمة دورًا كبيرًا فى هذا الصراع، فقد اختارت منذ

(١) نفس المرجع، ص٤٢٧.

(٢) عاد المركب البرتغالى بعد ثلاثة أشهر حاملًا المؤن وثمانية وعشرين جنديًا برتغاليًا من حصن موزمبيق. وبعد وصول أنباء الهجوم العمانى إلى جوا، أدرك البرتغاليون أنه إذا فقدت مُمباسا فإن موزمبيق يمكن أن تسقط بعدها، ويتعرض الطريق من لشبونة إلى الهند إلى الخطر، لذا بدأ الاستعداد لمواجهة العمانيين والدفاع عن مُمباسا. هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٨.

(٣) ولدت فاطمة بنت يوسف العلوى ١٦٥٠– ١٧١٥، ويطلق عليها أيضًا (فطومة) حوالى عام ١٦٥٠، أسلافها كانوا من حضرموت اليمن، والبعض يشير أيضًا إلى أن أصولها فارسية، وهى ابنة الملك يوسف ملك زنجبار، قسم والدها أملاكه فى أنجوجا unguja إلى قسمين، مملكة جنوبية يحكمها ابنه بكارى بن يوسف Bakari bin Yusuf فى كيزيمكازى Kizimkazi، ومملكة شمالية تحكمها ابنته فاطمة "موقعها زنجبار الحالية". تزوجت فاطمة من ابن عمها عبدالله، ملك أوتوندوى Utondwe، وهى مملكة سواحيلية تقع على الساحل مقابل زنجبار، وأنجبا ولدًا، هو الأمير حسن. حكمت الملكة فاطمة فى فترة مفصلية فى تاريخ شرق أفريقيا، حيث انتقل ميزان القوى من البرتغاليين إلى القوة العمانية الصاعدة.

Akyeampong, Emmanuel K., and Henry Louis Gates, JR., Dictionary of African Biography, Volume 1, New York, Oxford University Press, 2012, pp. 360-361.

البداية الوقوف إلى جانب البرتغاليين، فكانت تمد المحاصرين فى الحصن بما تستطيعه من إمدادات، مما ساعد على إطالة أمد صمود البرتغاليين أمام الحصار العمانى [١]. تعود صداقة الملكة فاطمة مع البرتغاليين لعام ١٦٩٠، عندما واجهت أول تمرد على حكمها، واستطاعت القضاء عليه بمساعدة البرتغاليين[٢]. والواقع، لقد استخدمت النخب الحاكمة من النساء فى الساحل السواحيلى إبان تلك الفترة مجموعة متنوعة من الاستراتيجيات للوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها، كان إحداها إقامة تحالفات مع القوى الخارجية، كما فعلت الملكة فاطمة، التي سعت عندما واجهت التمرد ضد حكمها عام ١٦٩٠، إلى التحالف مع البرتغاليين [٣].

مع طول مدة الحصار، حصدت الحمى حياة معظم البرتغاليين فى الحصن، وغدا الدفاع عن الحصن يعتمد على ولاء السواحيليين الذين كان عددهم لا يزال يبلغ ألفًا وخمسمائة شخص. على الجانب العمانى، كانت القيادة فى مسقط حريصة على تغيير القوات المحاصرة للحصن بصفة دورية، وتوفير احتياجاتهم من الماء والطعام والذخيرة باستمرار حتى لا يتسرب إليهم اليأس من طول أمد الحصار، وفى نفس الوقت واصل العمانيون قصف

(1)Alpers, Edward & Christopher Ehret, Op. Cit, p.529.

(2)Amory, D., Fatuma, Queen of Zanzibar. In B. G. Smith (Ed.), Encyclopedia of Women in World History, Vol. 2, New York, Oxford University Press, 2008, pp. 257–258.

(٣) فى عام ١٦٥٠، عندما وجدت الملكة موانا مويما Mwana Mwema – عمة الملكة فاطمة – نفسها في خضم صراعات دبلوماسية وعسكرية معقدة للسيطرة على تجارة المحيط الهندي المربحة، شكلت تحالفات مع مختلف الجيران ومع العمانيين من أجل الحفاظ على استقلال الجزيرة والبقاء فى الحكم.

Musisi, Nakanyike B., Women in Pre-colonial Africa: East Africa. In Yacob-Haliso, Olajumoke. Falola, Toyin (Eds.),- Palgrave Macmillan, Cham, 2019, p.9.

الحصن من المرابض التى أقاموها قربه، فضلًا عن ذلك تم تعزيز قوتهم بأربعمائة من الرجال قدموا من شبه الجزيرة العربية، للجهاد ضد البرتغاليين(١).

وبحلول نوفمبر ١٦٩٦ لم يبق فى الحصن سوى عشرين برتغاليًا، وخمسمائة من الوطنيين، ولما علم القائد العمانى بهذا الأمر، عرض على من بقى من المتحصنين تسليم الحصن مقابل إنقاذ أرواحهم، ولكنهم رفضوا على أمل وصول نجدة برتغالية تأتيهم من موزمبيق أو جوا(٢). كان من بين السواحيليين الموجودين فى الجانب البرتغالى، شابًا تميز بولائه الشديد للبرتغاليين، يدعى الشيخ داود، من ميناء فازا، وعلى الرغم من أنه كان مسلمًا، ودمر البرتغاليون وطنه بوحشية فى الماضى، إلا أنه ساندهم بقوة، هو وابن عمه الذى لم يبلغ السابعة عشر من عمره، والذى لقى حتفه مقاتلًا وسط المدافعين عن الحصن، على الرغم من أن أخو الشيخ داود كان من المشاركين فى حصار الحصن مع الجانب العمانى. كان الأمير داود – كما أطلق عليه البرتغاليون– وأتباعه هم الذين يسيطرون على الحصن فى ذاك الوقت، فقد مات القائد البرتغالى للحصن جواو ردرجز Joao Radrigusseho فى الثانى والعشرين من أكتوبر من نفس العام، وحدثت حالات هروب عديدة لمن بقى من البرتغاليين على قيد الحياة، وبقى الأمير داود معاندًا ورافضًا لتسليم الحصن، انتظارًا للنجدة البرتغالية، مما ساهم فى إطالة أمد الحصار لأطول مما كان يُتوقع، بالرغم من هلاك أغلب البرتغاليين فى الحصن(٣).

وفى ديسمبر عام ١٦٩٦ استقبلت الملكة فاطمة أسطولًا برتغاليًا آتى من جوا لنجدة الحصن، مكون من أربع سفن وثلاث زوارق، تحت قيادة لويس دى ميلو دى سامبايو Luis de Melo de Sampaio، الذى لُقب بالقائد العام

(١) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٨.
(٢) سلامة، مصطفى طه: مرجع سبق ذكره، ٦٣.
(٣) هول، ريتشارد: المرجع السابق، ص ص٤٢٨، ٤٣٠.

لقوة إغاثة مُمباسا[١]. كانت السفن تحمل حوالى ٧٧٠ رجلًا أغلبهم من الوطنيين الذين جُمعوا قسرًا. ظلت السفن البرتغالية ملقية مراسيها خارج المرفأ، بينما جرى نقل الطعام والذخائر للمحاصرين تحت نيران المدافع العمانية، مما كبد البرتغاليين خسائر فادحة فى الرجال والمؤن، وفى منتصف يناير ١٦٩٧، أبلغ دى ميلو الأمير داود أنه فعل ما فيه الكفاية وسيتوجه إلى موزمبيق، رافضًا كل توسلات داود، فى شن هجوم شامل على السفن العمانية، وفى ٢٥ يناير رفعت سفينة القيادة الفرقاطة "سان أنطونيو دى تانا" مرساتها، وتم ترك سفينة برتغالية لدعم المحاصرين، ولكن قبطان السفينة ما لبث أن اتجه إلى زنجبار حالما اختفت سفينة القيادة عبر الأفق، خوفًا من أن يقع عليه عبء المواجهة المباشرة مع العمانيين بدون أعداد كافية من الجند[٢].

من جانبها حاولت الملكة فاطمة تزويد المحاصرين بما يكفى من مؤن، فأرسلت ثلاثة مراكب شراعية محملة بالطعام لحصن يسوع، ولكن القوات العمانية قبضت على المراكب، واستولت على ما تحمله. وهناك رواية تفيد بأن الملكة فاطمة أرسلت سفن لمحاربة العمانيين، بهدف تخفيف الضغط عن المحاصرين [٣]. والواقع، أن زنجبار أصبحت ملجًأ وحصنًا لتوفير الحماية للسفن البرتغالية الساعية لفك الحصار عن الحصن، سواء كانت سفن تابعة للإدارة البرتغالية فى موزمبيق وجوا أو سفن قراصنة، على سبيل المثال، حاول

(١) كانت مهمة أسطول النجدة استبدال الحامية الموجودة فى الحصن بحامية جديدة، ثم العودة إلى جوا، ولكن لم يتمكن من آداء هذه المهمة، بسبب الحصار العمانى المحكم لمينائى كليندانى، الميناء الرئيسى لمُمباسا، مما اضطر السفن البرتغالية إلى اللجوء إلى ميناء سان انطونيو الأقل صلاحية. سلامة، مصطفى طه: مرجع سبق ذكره، ٦٣.

(٢) نفس المرجع والصفح.

(3) Smith, Bonnie G. "Editor", The Oxford Encylopedia of Women in World History, Volume 1, Oxford University Press, 2008, p.258.

ربان إحدى السفن البرتغالية ويدعى كيدى Kidde، أن يتجول بين مناطق الساحل الشرقى لجمع ما يمكن من القراصنة لمساعدته فى تخفيف الحصار عن المحاصرين فى حصن يسوع، ولكن أثناء تجواله فؤجى بمجموعة من السفن العربية والفارسية تتعقبه فأسرع إلى زنجبار للاحتماء، ومنها توجه إلى مُمباسا، ولكنه يأس من مساعدة المحاصرين نتيجة إحكام العمانيين للحصار(١).

دخل الحصار شهره الحادى عشر، وبعد أيام قلائل تبين أن شيئًا آخر قد دخل مع التعزيزات البشرية والمؤن وهو "مرض التورم" وربما كان هذه المرض هو الطاعون الدبلى، وقد تسربت عدواه مع القادمين من الهند، بدأ المرض فى حصد أرواح البرتغاليين بمعدل مخيف، ففى نهاية يونيو لم يبق على قيد الحياة إلا ستة من البرتغاليين، وراهب أغسطينى، وجنديان، أما باقى من ظلوا على قيد الحياة فكانوا بضع عشرات من السواحيليين، وبعض الرجال الأفارقة، وحوالى خمسين امرأة أفريقية، تم تعليمهن كيفية إطلاق النيران، لمواجهة نقص العدد. وبدأ الكثير من السواحيليين الهرب من الحصن، خشية الإصابة بالطاعون من ناحية، ورفضًا للبقاء مع الجانب الذى أوشك على الخسارة من ناحية أخرى، خاصة أن العمانيون استطاعوا السيطرة على نقطة تماس الحصن الأخيرة مع العالم الخارجى، والمتمثلة فى الشاطئ المقابل للدفاعات الخارجية للحصن(٢).

وفى أغسطس ١٦٩٧ أصيب قائد الحصن أنطونيو موجو دى ميلو Antonio Mojo de Mello بالمرض، لذا سلم مفتاح الحصن للأمير الشاب داود قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وحثه على أن يقاتل للنهاية، كان من المتوقع أن يستسلم الأمير داود أمام اليأس، نظرًا لتفشى المرض، وتأخر

(1) Genesta, Hamillton, Op. Cit, p.157.

(٢) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٠.

وصول النجدة بالإمدادات، ويحاول عقد تسوية مع القوات العمانية التى تحكم الخناق حوله يومًا بعد يوم، أو على الأقل الهرب عندما كان بإمكانه ذلك، ولكنه صم آذنيه عن النداءات من خارج الحصن التى حثته على تغيير الجانب الذى يقف فيه، ورد بكلمات جافة، قصيرة، وحازمة، أنه لن يبرح مكانه، ورفض الاستسلام وآثر انتظار النجدة البرتغالية(١).

كانت حكومة البرتغال فى الهند تشعر بمدى الضعف الذى يعترى المحاصرين فى الحصن، لذا أرسلت فى سبتمبر ١٦٩٧، سفينة قيادة قوة إغاثة مُباسا مرة أخرى مع سفينة إمداد. ألقت السفينة مراسيها فى المرفأ، وبدأت بتوجيه القصف إلى بطاريات الشاطئ العربية، ولكن قائد قوة الإغاثة كان مترددًا بشأن الوضع داخل الحصن، خاصة مع موت جميع البرتغاليين، لذلك؛ بعث الأمير داود برسالة إلى قائد القوة، يصف فيها كيف استطاع مع قلة من السواحيليين، والنساء الأفريقيات الخمسين الصمود فى حصن يسوع، مدافعين عنه أمام الحصار العمانى، من أجل جلالة ملك البرتغال، رغم موت كل البرتغاليين بالحصن، إذ أدى الحصار إلى موت ألفين وخمسمائة رجل، وخمسمائة امرأة وطفل. ولتأكيد ولائه كتب داود فى وقت لاحق، رسالة بهدف تسليمها لملك البرتغال، قال فيها:" الولاء عندى يفوق الطموح أو حب الأم لوليدها"(٢).

عندما أقتنع قائد قوة الإغاثة بأن الرسالة حقيقية وليست فخًا نُصب لهم، أرسل نائبه بيريرا دى بريتو Pereira de Preto إلى الشاطئ ومعه سبعين رجلًا، مخترقًا الحصار العمانى، حيث تسلق بعض أفراد المجموعة سور الحصن، وما أن رآهم الأمير داود حتى أمر بفتح أبواب الحصن، واستقبلهم بالترحاب، وعلى مدى أسابيع عديدة تم إنزال المؤن والمزيد من الجنود إلى

(١) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٠.
(٢) نفس المرجع، ص ٤٣١.

الشاطئ ليلًا، وتمكن كل ضباط الحملة ورجالها المائتين من دخول الحصن[١]. نتيجة صمود الأمير داود طوال هذه الفترة ورفضه تسليم الحصن، أصبح محل تقدير البرتغاليين على وفائه لهم، وشجاعته فى قيادة الحصن والدفاع عنه [٢].

وبالرغم من الإمدادات التى جاءت بها النجدة البرتغالية، إلا أن أحوال المحاصرين لم تتحسن إلا فترة قصيرة عادت بعدها الأوضاع للأسوأ، خاصة بعد وفاة قائد قوة الإغاثة سامبايو، الذى تولى قيادة الحصن من الشيخ داود، وعن طريق التصويت أعلن بيربرا دى بريتو قائدًا وحاكمًا للبرتغاليين، وأصبح الأمير داود قائدً وحاكمًا للحصن. وفى ديسمبر ١٦٩٧، تم إرسال قوة إغاثة برتغالية جديدة لنجدة مُمباسا، وقد أسر العمانيون أحد مراكب الإغاثة، فوجدوا فيه رزمة من الأوراق تحمل أوامر رسمية صادرة من جوا، حول الطريقة التى ينبغى فيها إنقاذ الحصن وفك الحصار [٣].

وقد قرأ العمانيون الأوامر بصوت عالى ولغة برتغالية سليمة على مسمع من المدافعين عن الحصن، مما زاد فى انخفاض معنوياتهم على نحو كارثى، وما زاد الأمور سوءًا قدوم قائد جديد للحامية مع قوة الإغاثة، وهو ضابط صارم يدعى ليأندرو باربوسا Liandro Barbosa، فأهان الأمير داود، وتعامل بازدراء مع السواحيليين الموجودين بالحصن، وفى يناير ١٦٩٨ تأهبت سفن الإغاثة للرحيل مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان على متنها الأمير داود، مع رجاله من المقاتلين السواحيليين، لأنهم قرروا عدم البقاء فى الحصن فى ظل النظام الجديد، وكان معهم عددًا من النساء، تم إنزالهن فى زنجبار، كما غادر الحصن أيضًا بيريرا دى بريتو الذى أعفى من منصبه[٤].

---

(١) سلامة، مصطفى طه: مرجع سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢) ضمت هذه الحملة حوالى مائة وخمسين برتغاليًا، ومائتين من الهنود والوطنيين الأفارقة.
Genesta, Hamillton, Op. Cit, p.158.

(٣) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٣.

(٤) هول، ريتشارد: المرجع السابق، ص ٤٣٣..

فى ذلك الوقت عجز الحكام السواحيليين الموالين للبرتغال، مثل: الملكة فاطمة، وملكة بيمبا، وحاكم ماليندى عن إرسال أيه معونات للحصن، لذلك؛ كتبت الملكة فاطمة إلى نائب الملك فى جوا، تطلب منه سرعة إرسال حملة جديدة لنجدة المحاصرين، وحمايتها هى شخصيًا، بسبب خوفها من التهديد العمانى، الذى بات يقترب من جزيرتها، نتيجة إستمرار تدفق القوات العمانية إلى الساحل، مما أصبح يهدد بقائها وحكمها لزنجبار. كان هؤلاء الحكام يخافون من امتداد النفوذ العمانى للساحل، خاصة مع قوة البحرية العمانية، مما يسهل على العمانيين السيطرة على مدن الساحل وبسط نفوذهم على المنطقة، مما سيضر بمراكز هؤلاء الحكام الذين كان يستقون بمحالفتهم للبرتغاليين أمام منافسيهم على الحكم، إضافة لارتباط وتشابك مصالحهم الاقتصادية مع الهند، فى ظل الامتيازات التى حصلوا عليها نتيجة ولائهم للبرتغاليين، لذلك كانت معركتهم مع العمانيين معركة وجود وسيادة، لذا كرسوا جهدهم لمساندة حليفهم المستعمر لأن بقاء البرتغاليين كان صمام أمان لاستمرار وجودهم فى الحكم [١]. وأمام هذا الموقف المتأزم، قرر نائب الملك الجديد فى الهند جونزالفيزا دى كامارا كوتينهو إعداد حملة قوية لإنقاذ مركز البرتغاليين فى الساحل الشرقى لأفريقيا، بدأت الحملة تحركها فى ديسمبر ١٦٩٨، مع بداية موسم الرياح الشمالية الشرقية، كان هدف الحملة فك الحصار العمانى عن الحصن، والقضاء على التهديد العمانى بشكل نهائى، وحماية أصدقاء البرتغال فى المنطقة[٢].

قام نائب الملك بتجميع أربع فرقاطات، على متنها ألف ومئتا رجل، ومعهم الأمير داود، الذى ظل على ولائه للبرتغاليين، وأبدى استعداده لخوض غمار المزيد من المعارك معهم، وقد طارت شهرته بعيدًا فى الآفاق نتيجة هذا الموقف، وخاصة مع اللقب الذى منحه له البرتغاليون، وهو أمير فازا، التى وُعد بحكمها. أمر نائب الملك قواده بأنهم إذا وجدوا الحصن لايزال به من يدافع عنه فإنه ينبغى شن هجوم شامل لطرد العرب من جزيرة مُمباسا، والبر

(١) على، عبدالنبى على أحمد: الصراع العمانى البرتغالى فى المحيط الهندى، رسالة دكتوراه غير منشورة، القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ص ٩٩.

(2) Genesta, Hamillton, Op. Cit, p.161.

الأفريقى القريب منها، وإعادة فرض السلطة البرتغالية، أيًا كانت التضحيات، ولكن عند بلوغ مُمباسا فى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨، فوجئ البرتغاليون بعلم عمان الأحمر يرفرف على حصن يسوع، منهيًا حصار دام ثلاثة وثلاثين شهرًا(١). ففى ليلة ١٣ ديسمبر عام ١٦٩٨، هاجمت القوات العمانية الحصن، وتم قتل قائد الحصن باربوسا، ورفع العلم الأحمر شاهدًا على الانتصار العمانى (٢)، لذا توجه القائد البرتغالى من فوره إلى زنجبار، وعلى الرغم من نداءات الأمير داود، والملكة فاطمة، لم تُبذل أى محاولة للهجوم على مُمباسا، أو لاكتشاف كيف سقط الحصن(٣).

أصدر الإمام سيف بن سلطان أوامره بتعيين ناصر بن عبدالله المزروعى حاكمًا على مُمباسا، أما الحصن والحامية فقد أسند قيادتهما إلى قائد الحملة

(١) هول، ريتشارد: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٤.

(٢) سلامة، مصطفى طه: مرجع سبق ذكره، ص ٦٨.

(٣) بعد ثلاث سنوات فى سبتمبر من عام ١٧٠١، وصل خادم هندى يدعى براز فيالهو إلى جوا، ولديه قصة يرويها، فقد تم أسره لدى سقوط حصن اليسوع ونقل إلى شبه الجزيرة العربية، وبعد هربه شق طريقه عائدًا للهند، ماضيًا فى البداية إلى فارس، ومن هناك إلى بومباى. وحكى فيالهو كيف أن مجموعة المدافعين المتناقصة فى العدد قد صمدت فى الدفاع عن الحصن حتى بداية ديسمبر ١٦٩٨. وفى ذلك الوقت كان هناك تسعة جنود برتغاليين فقط على قيد الحياة، إضافة للقائد لياندرو باربوسا الذى كان يحتضر، إضافة لثلاثة من الهنود (أحدهما فيالهو) وامرأتان أفريقيتا، وعبد أفريقى تابع للقائد، ولم يكن لدى المهاجمين أن القوة الموجودة بداخل الحصن ضعيفة على هذا النحو الذى يدعو للإشفاق، وفى ١٢ ديسمبر أمر القائد العبد الأفريقى الشاب بالمضى إلى خارج الأسوار لجمع بعض الأعشاب للعلاج، واحتج الفتى بأنه سيتم القبض عليه من قبل قوة الحصار، فرد باربوسا قائلًا:" بأنهم إذا كانوا سيهجمون غدًا فالأمر سيان فليأتوا اليوم"، وقد أسر الفتى بالفعل، وكشف لدى التحقيق معه عن ضألة عدد المدافعين عن الحص. قدرت الخسائر فى صفوف المدافعين عن الحصن من جراء القتال والمرض بستة آلاف وخمسمائة قتيل، بينهم حوالى ألف برتغالى، وألفان وخمسمائة سواحيلى، والباقى من المدنيين الذين استقروا فى الخندق. وليس هناك تقدير للخسائر العمانية. هول، ريتشارد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٤، ٤٣٥.

سعد بن سعد البلوشى. كما أرسل الإمام بعد سقوط حصن يسوع عددًا من السفن لمهاجمة زنجبار، والقبض على ملكتها فاطمة عقابًا لها على موقفها، وجهودها فى إمداد المحاصرين بالمؤن لمساعدتهم على مقاومة الحصار العمانى، واستقبالها لسفن النجدة التى أرسلها البرتغاليون سواء من موزمبيق أو من جوا، وحتى سفن القراصنة البرتغاليين التى وفرت لها الحماية، مما ساعد فى إطالة أمد الحصار، وقد فوجئت الملكة بالجنود والأهالى فى زنجبار يرفضون محاربة العمانيين من أجلها، وتم القبض عليها، وأرسلت إلى مسقط، حيث عاشت اثنى عشر عامًا فى الأسر، حتى استجاب الإمام سيف لرجاء ابنها الأمير حسن بن عبدالله حاكم زنجبار، وأطلق سراحها لتعود إلى زنجبار عام ١٧١٠، وظلت تعيش فيها حتى وفاتها فى أواخر عام ١٧٢٧ (١).

تمكن الإمام سيف بن سلطان من استثمار هذا الانتصار فى طرد كافة الحاميات البرتغالية على طول ساحل شرق أفريقيا، فاندفعت القوات العمانية تدعمها قوات من المتطوعين من أبناء الساحل لطرد البرتغاليين، وتم تحرير بيمبا، وزنجبار، وبات، وكليوة. رحب أهالى مُمباسا بالقوات العمانية، وكانوا يرقصون فى الشوارع حول النيران التى أوقدوها ابتهاجًا بسقوط الحصن، وعودة العرب إلى مُمباسا، وقد أكد رد الفعل هذا الروابط الوثيقة الى ظلت تربط المسلمين فى شرق أفريقيا بإخوانهم من عمان، والتى لم يستطع الاستعمار البرتغالى قطعها على مدار ما ينيف عن قرنين (٢).

(١) سلامة، مصطفى طه: مرجع سبق ذكره، ص ٧٠.

(٢) العجمى، خليل بن عبدالله بن سليمان: أوضاع عمان الداخلية وعلاقاتها الخارجية فى عهد اليعاربة خلال الفترة من ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م – ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، رسالة ماجستير غير منشورة، مسقط، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ص١٠٧.

بعد الانتصار الذى حققه العمانيون، تشكل وفد من زعماء قبائل مُمباسا للقاء الإمام سيف بن سلطان، وتهنئته بالانتصار على البرتغاليين، كان الوفد يضم فى صفوفه مندوبين عن مختلف القبائل العربية والأفريقية فى مُمباسا، وعند وصولهم إلى مسقط استقبلهم الإمام وأكرمهم، وبعد أن تلقوا الهدايا والمساعدات، أمر الإمام أن يُحملوا إلى بلادهم على ظهر السفن التابعة له، وهى: كعب رأس، والملكى(١). وأرسل معهم محمد بن على العمرى ليكون واليًا على المدينة، وقد أباح العمرى الحصن للأهالى، واكتفى بالاستيلاء على الأسلحة (٢). وقد اكتفى أئمة اليعاربة فى هذه المرحلة بتعيين نواب عنهم فى شرق أفريقيا، لتيسير أمورهم فيها، وبقيت السلطة فى يد أهلها (٣).

(١) ترمنجهام، سبنسر: مرجع سبق ذكره، ص ٥٦.

(٢) المزروعى، الأمين بن على، تاريخ ولاية المزارعة فى أفريقيا الشرقية، تحقيق: إبراهيم الزين صغيرون، لندن، منشورات البحر الأحمر ، ١٩٩٥، ص ١٢٣.

(٣) ترمنجهام، سبنسر: مرجع سبق ذكره، ص ٥٦.

خـــــاتمة

جاء تحرير العمانيين لساحل شرق أفريقيا استجابة لرابطة الدين، والجذور التاريخية الأصيلة للوجود العربى فى هذه المنطقة، كما جاء أيضًا فى إطار استراتيجية تحرير التجارة وتأمينها، حيث استخدم البرتغاليون أقصى درجات العنف لتفكيك المجتمعات الأفرو– عربية والأفريقية، والقضاء على الكيانات التجارية والاقتصادية العربية، كما شكلوا حاجزًا بين ساحل شرق أفريقيا والأسواق الخارجية شرقًا عبر المحيط الهندي، وجَنوا – تبعًا لذلك– أرباحًا طائلة، فى حين عانى أهالى الساحل من شظف العيش نتيجة الحصار السياسى والاقتصادى والثقافى الذى مارسه البرتغاليون ضدهم، حيث اتسم الوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا بالاستخدام المفرط والقاسى للقوة، والافتقار إلى الدبلوماسية، واللامبالاة تجاه الشؤون المحلية.

لم يستفد من الوجود البرتغالى إلا نُخب تعاونت مع البرتغاليين، وساهمت بمؤازرتها لهم فى عرقلة التقدم العمانى لتحرير ساحل شرق أفريقيا، يعود ذلك لارتباط مصالحهم التجارية مع البرتغاليين، إضافة لنجاح البرتغاليين فى صناعة وتصعيد نخب محلية موالية لهم. والشاهد، أن مواقف تلك النخب الخائنة كانت خارجة عن إجماع باقى حكام وأهالى ساحل شرق أفريقيا المنحاز والداعم للقوات العمانية، والدليل تواتر طلب أهالى الساحل المساعدة من أئمة عمان، على مستوى الوفود الشعبية وكذلك النخب الحاكمة، واستمرار رفضهم ومقاومتهم للاستعمار البرتغالى الذى دام قرونًا، وحماسهم للجهاد ضدهم، تحت لواء بلد عربى مسلم.

وبفقدان مومباسا تم إعلان نهاية السلطة البرتغالية فى النصف الغربى من المحيط الهندى، وانضم حصن يسوع الذى شُيد ليقف رمزًا للتفوق المسيحى فى ممتلكات البرتغال فى تلك المنطقة إلى المناطق التى تم طرد البرتغاليين منها. وبسقوط حصن يسوع امَّحت السلطة البرتغالية من خريطة المنطقة

الواقعة بين البحر الأحمر ومصب نهر الزامبيزى، بعد قرنين تقريبًا من إبحار فاسكو دى جاما على امتداد الساحل فى رحلته الاستكشافية إلى الهند، ولم يبق شئ من دولة الهند البرتغالية فى شرق أفريقيا إلا موانٍ قليلة، حيث تم حصر القوة البرتغالية في موزمبيق. كان الانتصار العمانى مقدمة ليس فقط للخلاص من الاستعمار البرتغالى، بل أيضًا كان بمثابة تمهيد لموجة جديدة من الاندفاع العربى الإسلامى لشرق أفريقيا فى الساحل والداخل، بعد أكثر من مائتى عام وقف البرتغاليون فيها كحجرة عثرة أمام الانتشار العربى والإسلامى فى تلك البقاع. خرج العمانيون من الصراع مع البرتغاليين بمكاسب عسكرية واقتصادية تمثلت فى تأمين الخطوط الملاحية التى ترتادها سفنهم التجارية والعسكرية من وإلى الساحل السواحيلى، كما أضافت السفن والذخائر التى استولوا عليها من البرتغاليين قوة إلى الأسطول العمانى، مما جعل عمان قوة مرهوبة الجانب.

شكل رقم (١)

خريطة توضح مدن ساحل شرق أفريقيا وخطوط تجارة المحيط الهندى

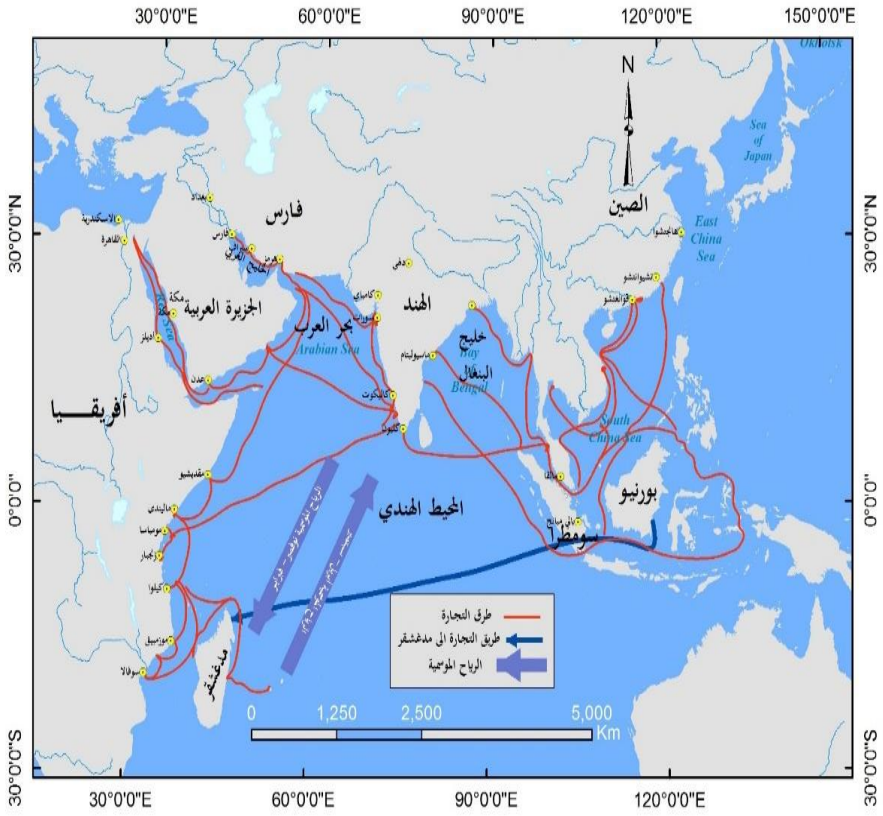

المصدر: Salim, A.I, A Costa Oriental da Africa, in Bethwell Allan (Ed.) Historia Geral da Africa, Africa do Seculo XVI ao XVIII, UNESCO, Ogot – Brasília, 2010.

شكل رقم (٢)

خريطة توضح مدن وجزر ساحل شرق أفريقيا

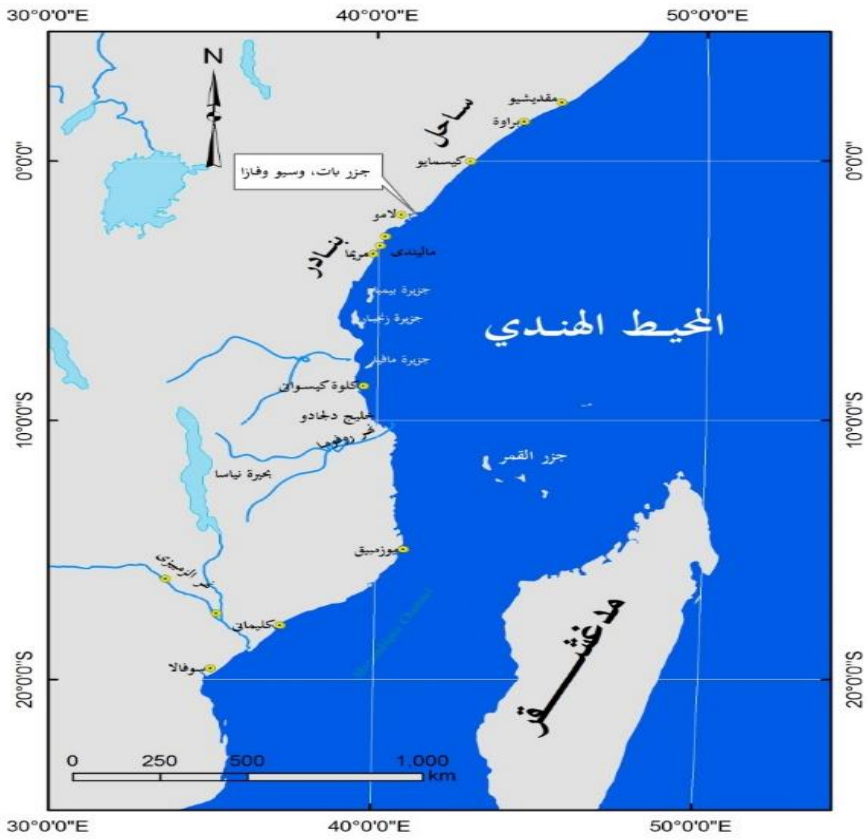

المصدر: Salim, A.I, A Costa Oriental da Africa, in Bethwell Allan (Ed.) Historia Geral da Africa, Africa do Seculo XVI ao XVIII, UNESCO, Ogot – Brasília, 2010.